٤

صفوة التفاسير

القسم الرابع

تفسير
سورتي الأعراف والأنفال

تأليف
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طُبع على نفقة المحسن الكبير
معالي السيد حسن عباس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع

دار القرآن الكريم
بيروت

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم، جامع بين المأثور والمعقول، مستمد من أوثق كتب التفسير
بأسلوب ميسر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

القسم الرابع

تفسير
سورتي الأعراف والأنفال

تأليف
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

دار القرآن الكريم
بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة، العمارية، الرياض



بين يدي السورة

سورة الأعراف من أطول السور المكية ، وهي أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء ، ومهمتها كمهمة السور المكية تقرير أصول الدعوة الإسلامية من توحيد الله جل وعلا ، وتقرير البعث والجزاء ، وتقرير الوحي والرسالة .

* تعرضت السورة الكريمة في بدء آياتها للقـرآن العظيم معجزة محمد الخالدة ، وقررت أن هذا القرآن نعمة من الرحمن على الإنسانية جمعاء ، فعليهم أن يستمسكوا بتوجيهاته وإرشاداته ليفوزوا بسعادة الدارين .

* ولفتت الأنظار إلى نعمة خلقهم من أبٍ واحد ، وإلى تكريم الله لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أب البشر آدم عليه السلام الذي أمر الله الملائكة بالسجود له ، ثم حذَّرت من كيد الشيطان ذلك العدوِ المتربص الذي قعد على طريق الناس ليصدهم عن الهدى ويبعدهم عن خالقهم .

* وقد ذكر تعالى قصة آدم مع إبليس وخروجه من الجنة ، وهبوطه إلى الأرض كنموذج للصراع بين الخير والشر ، والحق والباطل ، وبيانٍ لكيد إبليس لآدم وذريته ، ولهذا وجه الله إلى أبناء آدم ـ بعد أن بيَّن لهم عداوة إبليس لأبيهم ـ أربعة نداءات متتالية بوصف البُنوَّة لآدم ﴿يا بني آدم﴾ وهو نداء خاص بهذه السورة يحذِّرهم بها من عدوهم الذي نشأ على عداوتهم من قديم الزمن حين وسوس لأبيهم آدم حتى أوقعه في الزلّة والمخالفة لأمر الله ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما . . ﴾ .

* كما تعرضت السورة الكريمة لمشهدٍ من المشاهد الواقعة يوم القيامة ، مشهد الفرق الثلاثة وما يدور بينهم من محاورة ومناظرة : فرقة المؤمنين أصحاب الجنة ، وفرقة الكافرين أصحاب النار ، وفرقةٍ ثالثة لم يتحدث عنها القرآن إلا في هذه السورة ، وهي الفرقة التي سميت بأصحاب الأعراف وسميت باسمها السورة «سورة الاعراف» مشهدٌ سوف يشهده العالم يوم البعث والجزاء على الحقيقة دون تمثيل ولا تخييل، تبيّن ما يكون فيه من شماتة أهل الحق «أصحاب الجنة» بالمبطلين أصحاب النار، وينطلق

صوت علوي يسجّل عليهم اللعنة والطرد والحرمان . وقد ضرب بين الفريقين بحجاب ووقف عليه رجال يعرفون كلاً بسيماهم ، يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ونضرتها ، ويعرفون أهل النار بسواد الوجوه وقترتها .

* وتناولت السورة قصص الأنبياء بإسهاب « نوح ، هود ، صالح ، لوط ، شعيب ، موسى » وقد ابتدأت بشيخ الأنبياء « نوح » عليه السلام وما لاقاه من قومه من جحود وعناد ، وتكذيب وإعراض ، وقد ذكرت بالتفصيل قصة الكليم موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية ، وتحدثت عما نال بني إسرائيل من بلاء وشدة ثم من أمن ورخاء وكيف لمّا بدلوا نعمة الله وخالفوا أمره عاقبهم الله تعالى بالمسخ إلى قردة وخنازير .

* وتناولت السورة كذلك المثل المخزي لعلماء السوء ، وصوَّرتهم بأشنع وأقبح ما يمكن للخيال أن يتصوره ، صورة الكلب اللاهث الذي لا يكف عن اللهث ، ولا ينفك عن التمرغ في الطين والأوحال ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهثْ أو تتركه يلهث ﴾وتلك لعمر الحق أقبح صورة مزرية لمن رزقه الله العلم النافع فاستعمله لجمع الحطام الفاني وكان خزياً ووبالاً عليه ، لأنه لم ينتفع بهذا العلم ، ولم يستقم على طريق الإيمان وانسلخ من النعمة ، وأتبعه الشيطان فكان من الغاوين .

* وقد ختمت السورة الكريمة بإثبات التوحيد ، والتهكم بمن عبدوا ما لا يضر ولا ينفع ، ولا يبصر ولا يسمع ، من أحجار وأصنام اتخذوها شركاء مع الله ، وهو جل وعلا وحده الذي خلقهم وصوّرهم ويعلم متقلبهم ومثواهم ، وهكذا ختمت السورة الكريمة بالتوحيد كما بدأت بالتوحيد ، فكانت الدعوة إلى الإيمان بوحدانية الرب المعبود في البدء والختام .

التسمية : سميت هذه السورة بسورة الأعراف لورود ذكر اسم الأعراف فيها ، وهو سور مضروب بين الجنة والنار يحول بين أهلهما ، روى ابن جرير عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة ، وتخلفت بهم حسناتهم عن دخول النار ، فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله فيهم .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ المص ۝ كتابٌ أُنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه . . إلى . . ويحسبون أنهم مهتدون﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٣٠) .

اللغة : ﴿حرج﴾ ضيق يقال : حَرِج المكانُ أو الصدرُ إذا ضاق ﴿بياتاً﴾ قال الراغب : البَيَاتُ والتبييتُ : قصدُ العدوّ ليلاً[1] ﴿قائلون﴾ من القيلولة وهي النوم وسط النهار ، والقائلة : الظهيرة ﴿مذءوماً﴾ مذموماً يقال ذأمه أي ذمّه وحقّره ﴿مدحوراً﴾ مطروداً يقال دحره أي طرده وأبعده ﴿سوآتهما﴾ السوأة : العورة سميت بذلك لأن الإنسان يسوءه ظهورها ﴿طفقا﴾ شرعا وأخذا يقال : طفِق

(١) المفردات للراغب مادة بيت

يطفق إذا ابتدأ وأخذ ﴿يخصفان﴾ يرقعان ويلزقان ﴿ريشاً﴾ لباساً تتجملون به وأصل الريش : المالُ والجمال ومنه ريش الطير لأنه زينةٌ له وجمال ﴿قبيله﴾ جنوده وأصل القبيل : الجماعةُ سواءٌ كانوا من أصلٍ أو أصول شتى ﴿فاحشة﴾ الفاحشة هي الشيء الذي تناهى قبحه والمراد بها هنا الطوافُ حول البيت عراةً وكل أمرٍ قبيح يسمى فاحشة . والفحشاء ما اشتد قبحه من الذنوب كالفاحشة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾

التفسير : ﴿المص﴾ تقدم في أول سورة البقرة الكلام عن الحروف المقطّعة وأن الحكمة في ذكرها بيان « إعجاز القرآن » بالإشارة إلى أنه مركب من أمثال هذه الحروف ومع ذلك فقد عجز بلغاؤهم وفصحاؤهم وعباقرتهم عن الإتيان بمثله وروي عن ابن عباس معناه : أنا الله أعلم وأفْصِل ،وقال أبو العالية : الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد والصاد مفتاح اسمه صادق ﴿كتابٌ أنزل إليك﴾ أي هذا كتاب أنزله الله إليك يا محمد وهو القرآن ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي لا يضيقْ صدرك من تبليغه خوفاً من تكذيب قومك ﴿لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾ أي لتنذر بالقرآن من يخاف الرحمن . ولتذكّر وتعظ به المؤمنين لأنهم المنتفعون به ﴿اتبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم﴾ أي اتبعوا أيها الناس القرآن الذي فيه الهدى والنور والبيان المنزّل إليكم من ربكم ﴿ولا تتّبعوا من دونه أولياء﴾ أي ولا تتخذوا أولياء من دون الله كالأوثان والرهبان والكُهّان تولونهم أموركم وتطيعونهم فيما يشرعون لكم ﴿قليلاً ما تذكّرون﴾ أي تتذكّرون تذكراً قليلاً قال الخازن : أي ما تتعظون إلا قليلاً[١] ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾ أي وكثير من القرى أهلكناها والمراد بالقرية أهلُها ﴿فجاءها بأسنا بياتاً﴾ أي جاءها عذابنا ليلاً ﴿أو هم قائلون﴾ أي جاءهم العذاب في وقت القيلولة وهي النوم في وسط النهار قال أبو حيان : وخصّ مجيء البأس بهذين الوقتين لأنهما وقتان للسكون والدعة والاستراحة فمجيء العذاب فيهما أشق وأفظع لأنه يكون على غفلةٍ من المهلكين[٢] ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا﴾ أي ما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين شاهدوا العذاب ورأوا أماراته ﴿إلا أن قالوا إنّا كنا ظالمين﴾ أي إلا اعترافهم بظلمهم تحسراً وندامة ، وهيهات أن ينفع الندم ﴿فلنسألنّ الذين أُرسل إليهم﴾ أي لنسألن الأمم قاطبة هل بلّغكم الرسل وماذا أجبتم ؟ والمقصودُ من هذا السؤال

(١) تفسير الخازن ٢/ ١٧٣ . (٢) البحر ٤/ ٢٦٩ .

فَلَنَسْئَلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾

التقريع والتوبيخ للكفار ﴿ولنسألنَّ المرسلين﴾ أي ولنسألنَّ الرسل أيضاً هل بلّغوا الرسالة وأدوا الأمانة ؟ قال في البحر : وسؤال الأمم تقريرٌ وتوبيخ يعقب الكفار والعصاة نكالاً وعذاباً ، وسؤال الرسل تأنيسٌ يعقب الأنبياء كرامة وثواباً[1] ﴿فلنقصنَّ عليهم بعلم﴾ أي فلنخبرنهم بما فعلوا عن علمٍ منا قال ابن عباس : يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿وما كنا غائبين﴾ أي ما كنا غائبين عنهم حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم قال ابن كثير : يخبر تعالى عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير ، وجليل وحقير ، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء ، لا يغيب عنه شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور[2] ﴿والوزن يومئذٍ الحق﴾ أي والوزن للأعمال يوم القيامة كائن بالعدل ولا يظلم ربك أحداً ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ أي فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ أي الناجون غداً من العذاب الفائزون بجزيل الثواب ﴿ومن خفت موازينه﴾ أي ومن خفت موازين أعماله بسبب الكفر واجتراح السيئات ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ أي خسروا أنفسهم وسعادتهم ﴿بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ أي بسبب كفرهم وجحودهم بآيات الله ، قال ابن كثير : والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل : الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً يروى هذا عن ابن عباس ، وقيل : يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة ، وقيل : يوزن صاحب العمل كما في الحديث (يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة) والكل صحيح فتارةً توزن الأعمال، وتارةً محالها، وتارة يوزن فاعلها والله أعلم[3] أقول : لا غرابة في وزن الأعمال ووزن الحسنات والسيئات بالذات ، فإذا كان العلم الحديث قد كشف لنا عن موازين للحر والبرد ، واتجاه الرياح والأمطار ، أفيعجز القادر على كل شيء عن وضع موازين لأعمال البشر ؟ ﴿ولقد مكناكم في الأرض﴾ أي جعلنا لكم أيها الناس في الأرض مكاناً وقراراً قال البيضاوي: أي مكناكم من سكناها وزرعها والتصرف فيها[4] ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ أي ما تعيشون به وتحيون من المطاعم والمشارب وسائر ما تكون به الحياة ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي ومع هذا الفضل والإنعام قليل منكم من يشكر ربه كقوله ﴿وقليلٌ من عبادي الشكور﴾ ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ أي خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوَّر ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم ، وإنما ذكر

(١) البحر المحيط ٤/ ٢٧٠ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٧ . (٤) البيضاوي ص ١٦٠ .

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾

بلفظ الجمع تعظيماً له لأنه أبو البشر **﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾** أي ثم أمرنا الملائكة بالسجود لآدم تكريماً له ولذريته **﴿فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾** أي سجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس امتنع من السجود تكبراً وعناداً ، والاستثناء منقطع لأنه استثناء من غير الجنس وقد تقدم قول الحسن البصري : لم يكن إبليسُ من الملائكة طرفة عين[١] **﴿قال ما منعك ألاّ تسجد إذ أمرتك﴾** أي قال تعالى لإبليس أيُّ شيء منعك أن تدع السجود لآدم ؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ **﴿قال أنا خير منه﴾** أي قال إبليس اللعين أنا أفضل من آدم وأشرف منه فكيف يسجد الفاضل للمفضول ؟ ثم ذكر العلة في الامتناع فقال **﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾** أي أنا أشرف منه لشرف عنصري على عنصره ، لأنني مخلوق من نار والنار أشرف من الطين ، ولم ينظر المسكين لأمر من أمره بالسجود وهو الله تعالى قال ابن كثير : نظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف والتعظيم وهو أن الله خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وقاس قياساً فاسداً فأخطأ قبّحه الله في قياسه في دعواه أن النار أشرف من الطين ، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم ، والنار من شأنها الإحراق والطيش ، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح والنار محل العذاب ولهذا خان إبليس عنصره فأورثه الهلاك والشقاء والدمار[٢] قال ابن سيرين : أول من قاس إبليس فأخطأ فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس[٣] **﴿قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾** أي اهبط من الجنة فما يصح ولا يستقيم ولا ينبغي أن تستكبر عن طاعتي وأمري وتسكن دار قدسي **﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾** أي الذليلين الحقيرين قال الزمخشري : وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبسه الله الذل والصغار فمن تواضع لله رفعه ومن تكبّر على الله وضعه[٤] **﴿قال أنظرني إلى يوم يبعثون﴾** استدرك اللعين فطلب من الله الإمهال إلى يوم البعث لينجو من الموت لأن يوم البعث لا موت بعده فأجابه تعالى بقوله **﴿قال إنك من المنظرين﴾** قال ابن عباس : أنظره إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين فأبى الله ذلك عليه[٥] ويؤيده الآية الأخرى **﴿قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾** **﴿قال فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم﴾** أي فبسبب إغوائك وإضلالك لي لأقعدنَّ لآدم وذريته على طريق الحق وسبيل النجاة الموصل للجنة كما يقعد القُطّاع للسابلة **﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾** أي آتي عبادك من كل جهة من الجهات الأربع

---

(١) انظر التحقيق الذي كتبناه حول إبليس والأدلة التي ذكرناها على أنه من الجن وليس من الملائكة في صفحة ٤٨ من كتابنا « النبوة والأنبياء » . (٢) مختصر ابن كثير ٢/٨ . (٣) البحر ٤/٢٧٣ . (٤) الكشاف ٢/٩٠ . (٥) القرطبي ٧/١٤٧ .

وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا

لأصُدّهم عن دينك قال الطبري : معناه لآتينهم من جميع وجوه الحق والباطل ، فأصدهم عن الحق وأحسّن لهم الباطل قال ابن عباس : ولا يستطيع أن يأتي من فوقهم لئلا يحول بين العبد وبين رحمة الله تعالى[1] ﴿ثم لا تجد أكثرهم شاكرين﴾ أي مؤمنين مطيعين شاكرين لنعمك ﴿قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً﴾ أي اخرج من الجنة مذموماً معيباً مطروداً من رحمتي ﴿لَمَنْ تبعكَ منهم لأملأنَّ جهنم منكم أجمعين﴾ اللام موطئة للقسم أي لمن أطاعك من الإنس والجن لأملأنَّ جهنم من الأتباع الغاوين أجمعين ، وهو وعيد بالعذاب لكل من انقاد للشيطان وترك أمر الرحمن ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ أي وقلنا يا آدم اسكن مع زوجك حواء الجنة بعد أن أُهبط منها إبليس وأخرج وطرد ﴿فكلا من حيث شئتما﴾ أي كلا من ثمارها من أي مكان شئتما ﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ أباح لهما الأكل من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة عيّنها لهما ونهاهما عن الأكل منها ابتلاءً وامتحاناً فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في الوسوسة والمكر والخديعة ﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ أي ألقى لهما بصوتٍ خفي لإغرائهما بالأكل من الشجرة ﴿ليُبدي لهما ما وُوريَ عنهما من سوآتهما﴾ أي ليظهر لهما ما كان مستوراً من العورات التي يقبح كشفها ﴿وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا مَلَكيْن أو تكونا من الخالدين﴾ وهذا توضيح لوسوسة اللعين أي قال في وسوسته لهما : ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهية أن تكونا مَلَكَين أو تصبحا من المخلّدين في الجنة ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يُخْدع المؤمن بالله قال الألوسي : وإنما عبّر بصيغة المفاعلة للمبالغة لأن من يباري أحداً في فعل يجدُّ فيه[2] ﴿فدلاّهما بغرور﴾ أي خدعهما بما غرهما به من القسم بالله قال ابن عباس : غرهما باليمين وكان آدم يظن أنه لا يحلف أحدٌ بالله كاذباً فغرهما بوسوسته وقسمه لهما[3] ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما﴾ أي فلما أكلا من الشجرة ظهرت عوراتهما قال الكلبي : تهافت عنهما لباسهما فأبصر كلٌ منهما عورة صاحبه فاستحيا ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ أي أخذا وشرعا يلصقان ورقة على ورقة ليستترا به بعد أن كانت كسوتهما

(١) الطبري ١٢/ ٣٤١ . (٢) روح المعاني ٨/ ١٠٠ . (٣) القرطبي ٧/ ١٨٠ .

مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

من حلل الجنة قال القرطبي : أي جعلا يقطعان الورق ويلزقانه ليستترا به ومنه خصف النعل[١] وعن وهب ابن منبه قال: كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ، ولا هذه عورة هذا فلما أصابا الخطيئة بدت لهما سوآتهما[٢] ﴿وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقلْ لكما إن الشيطان لكما عدوٌ مبين﴾ أي ناداهما الله بطريق العتاب والتوبيخ قائلاً : ألم أحذركما من الأكل من هذه الشجرة وأخبركما بعداوة الشيطان اللعين ؟ روى أنه تعالى قال لآدم : ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحةٌ عن هذه الشجرة ؟ فقال : بلى وعزتك ولكنْ ما ظننتُ أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً قال : فوعزتي لأهبطنَّك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كداً[٣] ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين﴾ اعترفا بالخطيئة وتابا من الذنب وطلبا من الله المغفرة والرحمة قال الطبري : وهذه الآية هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه[٤] ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾ الخطاب لآدم وحواء وإبليس ولهذا جاء بصيغة الجمع أي اهبطوا من سماء القدس إلى الأرض حال كون بعضكم عدواً لبعض ، فالشيطان عدوٌ للإنسان ، والإنسان عدوٌ للشيطان كقوله ﴿إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً﴾ ﴿ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ إلى حين﴾ أي لكم في الأرض موضع استقرار وتمتع وانتفاع إلى حين انقضاء آجالكم ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تُخرجون﴾ أي في الأرض تعيشون وفيها تُقبرون ومنها تُخرجون للجزاء كقوله ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أخرى﴾ ثم ذكر تعالى ما امتنَّ به على ذرية آدم من اللباس والرياش والمتاع فقال ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً﴾ أي أنزلنا عليكم لباسين : لباساً يستر عوراتكم ، ولباساً يزينكم وتتجملون به قال الزمخشري : الريش لباس الزينة استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته[٥] ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ أي ولباس الورع والخشية من الله تعالى خير ما يتزين به المرء فإن طهارة الباطن أهم من جمال الظاهر قال الشاعر :

وخيرُ لباس المرء طاعةُ ربه ولا خير فيمن كان لله عاصياً

﴿ذلك من آيات الله﴾ أي إنزال اللباس من الآيات العظيمة الدالة على فضل الله ورحمته على عباده

(١) القرطبي ٧/ ١٨١ . (٢) الطبري ١٢/ ٣٥٥ . (٣) البحر ٤/ ٢٨١ . (٤) هذه الرواية نقلها الطبري عن الضحاك وفيها الإشارة إلى قوله تعالى ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾ (٥) الكشاف ٢/ ٩٧ .

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿لعلهم يذكَّرون﴾ أي لعلهم يذكرون هذه النعم فيشكرون الله عليها ﴿يا بني آدم لا يفتننَّكم الشيطان﴾ أي لا يغوينكم الشيطان بإضلاله وفتنته ﴿كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ أي كما أغوى أبويكم بالأكل من الشجرة حتى أخرجهما من الجنة ﴿ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما﴾ أي ينزع عنهما اللباس لتظهر العورات ، ونسب النزع إليه لأنه المتسبب ، وهذا هدف اللعين أن يهتك الستر عن الإنسان ويعريه من جميع الفضائل الحسِّية والمعنوية ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾ أي إن الشيطان يبصركم هو وجنوده من الجهة التي لا تبصرونه منها ، فهو لكم بالمرصاد فاحذروا كيده ومكره لأن العدو إذا أتى من حيث لا يُرى كان أشدَّ وأخوف ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ أي جعلنا الشياطين أعواناً وقرناء للكافرين ﴿وإذا فعلوا فاحشةً﴾ أي وإذا فعل المشركون فاحشة وهي الفعلة المتناهية في القبح كالطواف حول البيت عراة ﴿قالوا وجدنا عليها آباءنا﴾ أي اعتذروا عن ذلك الفعل القبيح بتقليد الآباء ﴿والله أمرنا بها﴾ أي أمرنا بالتجرد من الثياب إذ كيف نطوف في ثياب عصينا فيها الله ! وهذا افتراء على ذي الجلال قال البيضاوي : احتجوا بأمرين : تقليد الآباء ، والافتراء على الله سبحانه ، فأعرض عن الأول لظهور فساده ، وردَّ الثاني بقوله ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ [1] أي قل لهم يا محمد : الله منزَّه عن النقص لا يأمر عباده بقبائح الأفعال ومساوىء الخصال ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتكذبون على الله وتنسبون إليه القبيح دون علمٍ ونظرٍ صحيح ؟ ﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ أي بالعدل والاستقامة ﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾ أي توجهوا بكليتكم إليه عند كل سجود ﴿وادعوه مخلصين له الدين﴾ أي واعبدوه مخلصين له العبادة والطاعة قال ابن كثير : أي أمركم بالاستقامة في عبادته وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات وبالإخلاص لله في العبادة فإن الله تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين : أن يكون صواباً موافقاً للشريعة ، وأن يكون خالصاً من الشرك [2] ﴿كما بدأكم تعودون﴾ أي كما بدأكم من الأرض تعودون إليها ﴿فريقاً هدى وفريقاً حقَّ عليهم الضلالة﴾ أي هدى فريقاً منكم وأضلَّ فريقاً منكم وهو الفعال لما يريد لا يُسأل عما يفعل ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ هذا تعليل

(١) البيضاوي ص ١٨٩ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ١٣ .

للفريق الذين حقت عليهم الضلالة أي اتخذوا الشياطين نصراء من دون الله ﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾ أي يظنون أنهم على بصيرة وهداية .

البَلاَغَة : ١ - ﴿حرج منه﴾ أي ضيق من تبليغه فهو على حذف مضاف مثل ﴿واسأل القرية﴾ .

٢ - ﴿من ربكم﴾ التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة لضمير المخاطبين لمزيد اللطف بهم وترغيبهم في امتثال الأوامر[1] .

٣ - ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ بين ﴿ثقلت﴾ و ﴿خفت﴾ طباقٌ وكذلك بين﴿بياتاً﴾ و ﴿قائلون﴾ لأن البيات معناه ليلاً و ﴿قائلون﴾ معناه نهاراً وقت الظهيرة .

٤ - ﴿خلقناكم ثم صورناكم﴾ هو على حذف مضاف أي خلقنا أباكم وصورنا أباكم .

٥ - ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ استعار الصراط المستقيم لطريق الهداية الموصل إلى جنان النعيم .

٦ - ﴿ويا آدم﴾ فيه إيجاز بالحذف أي وقلنا يا آدم .

٧ - ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ عبَّر عن الأكل بالقرب مبالغة في النهي عن الأكل منها .

٨ - ﴿وقاسمهما إني لكما﴾ أكد الخبر بالقسم وبإنَّ واللام لدفع شبهة الكذب وهو من الضرب الذي يسمى « إنكارياً » لأن السامع متردِّد .

٩ - ﴿فيها تحيون وفيها تموتون﴾ بين الجملتين طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

تَنْبِيه : سميت العورة سوأة لأن كشفها يسوء صاحبها قال العلماء : في الآية دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور وأنه مستهجنٌ في الطباع ولذلك سميت سوأة أقول : إن الآية قد أوضحت هدف إبليس اللعين ﴿ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما﴾ فمن دعا إلى تعري المرأة وشجَّع على ذلك كما هو حال من يزعم التقدمية ويدعو المرأة الى نزع الحجاب بدعوى الحرية والمساواة فإنما هو عدوٌ للمرأة ومن أنصار وأعوان إبليس لأن الهدف واحد ، وهي دعوة مكشوفة غايتها التفسخُ والانحلال الخلقي ، وليست التقدمية بالتكشف والتعري وإنما هي بصيانة الشرف والعفاف ولله در القائل :

يا ابنتي إن أردتِ آيةَ حسنٍ ... وجمالاً يزينُ جسماً وعقلاً
فانبذي عادة التبرج نبذاً ... فجمالُ النفوسِ أسمى وأعلى
يصنع الصَّانعون ورداً ولكنْ ... وردةُ الروضِ لا تُضارع شكلاً

قال الله تعالى : ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم . . إلى . . وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ من آية (٣١) إلى نهاية آية (٥١) .

(١) أفاده أبو السعود ٢/ ١٥٥

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى قصة آدم عليه السلام ، وذكر ما امتن به على بنيه وما أنعم به عليهم من اللباس الذي يستر العورات ، أمر هنا بأخذ الزينة والتجمل في المناسبات وعند إرادة الصلاة ، ثم ذكر أحوال الآخرة وانقسام الناس إلى طوائف : « أهل الجنة ، وأهل النار ،وأهل الأعراف » ومآل كل فريق من سعادة أو شقاء في دار العدل والجزاء .

اللغَة : ﴿زينتكم﴾ الزينة : ما يتزين به المرء ويتجمل من ثياب وغيرها ﴿الفواحش﴾ جمع فاحشة وهي ما تناهى قبحه من المعاصي ﴿البغي﴾ الظلم والاستطالة على الناس ﴿سلطاناً﴾ حجة وبرهاناً ﴿سَمّ الخياط﴾ ثقب الإبرة ﴿مهاد﴾ فراش يمتهده الإنسان ﴿غواش﴾ أغطية جمع غاشية قال ابن عباس : هي اللحف ﴿الأعراف ﴾ السور المضروب بين الجنة والنار جمع عرف مستعار من عرف الديك ﴿بسيماهم﴾ بعلامتهم .

سَبَبُ النّزول : عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت عريانة وتقول : من يعيرني تَطْوافاً تجعله على فرجها وتقول :

اليوم يبدو بعضُه أو كلّه فما بدا منه فلا أحلّه

فنزلت هذه الآية ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ وأذن مؤذن رسول الله ﷺ : ألاّ يطوف بالبيت عُريان[1] .

* ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا

التفسِير :﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ أي البسوا أفخر ثيابكم وأطهرها عند كل صلاة أو طواف ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ أي لا تسرفوا في الزينة والأكل والشرب بما يضر بالنفس والمال ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ أي المتعدين حدود الله فيما أحلَّ وحرّم ﴿قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراةً ويحرمون على أنفسهم ما أحللت لهم من الطيبات ، من حرّم عليكم التجمل بالثياب التي خلقها الله لنفعكم من النبات ، والمستلذات من المآكل والمشارب ! والاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ أي هذه الزينة والطيبات في الدنيا مخلوقة للمؤمنين وإن شاركهم فيها الكفار ، وستكون خالصة لهم يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد لأن الله حرم الجنة على الكافرين ﴿كذلك نفصّل

(١) أخرجه مسلم كذا في القرطبي ٧/ ١٨٩ .

وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ

الآيات لقوم يعلمون﴾ أي نبيِّن ونوضح الآيات التشريعية لقوم يتدبرون حكمة الله ويفقهون تشريعه ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ أي قل لهم يا محمد ما حرّم الله إلا القبائح من الأشياء التي تفاحش قبحها وتناهى ضررها، سواء ما كان منها في السر أو في العلن ﴿والإثم والبغي بغير الحق﴾ أي وحرّم المعاصي كلها والعدوان على الناس ﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي تجعلوا له شركاء في عبادته بدون حجة أو برهان ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ أي تفتروا على الله الكذب في التحليل والتحريم ﴿ولكل أمة أجل﴾ أي لكل أمة كذبت رسلها مدة مضروبة لهلاكها قال في البحر: هذا وعيد للمشركين بالعذاب إذا خالفوا أمر ربهم[1] ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ أي فإذا جاء وقت هلاكهم المقدر لهم لا يتأخر عنهم برهة من الزمن ولا يتقدم كقوله ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾[2] والساعة مثلٌ في غاية القلة من الزمان ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي﴾ المراد ببني آدم جميع الأمم والمعنى إن يجئكُم رسلي الذين أرسلتهم إليكم يبينون لكم الأحكام والشرائع ﴿فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي فمن اتقى منكم ربه بفعل الطاعات وترك المحرمات فلا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون ﴿والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي وأما من كذب واستكبر عن الإيمان بما جاء به الرسل فأولئك في نار جهنم ماكثون لا يخرجون منها أبداً ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته﴾ الاستفهام للإنكار أي من أقبح وأشنع ممن تعمّد الكذب على الله أو كذّب بآياته المنزلة؟ ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ أي يصيبهم حظهم في الدنيا مما كُتب لهم وقُدر من الأرزاق والآجال قال مجاهد: ما وُعدوا به من خير أو شر ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾ أي جاءت ملائكة الموت تقبض أرواحهم ﴿قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله﴾ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله أدعوهم ليخلصوكم من العذاب، والسؤال للتبكيت والتوبيخ ﴿قالوا ضلوا عنّا﴾ أي قال الأشقياء المكذبون لقد

(١) البحر المحيط ٤/٢٩٢. (٢) هذا الراجح في تفسير الآية أن المراد به اجل الامم المكذبين للرسل وهو اختيار الطبري وابن كثير وأبي السعود وقيل: المراد أن كل إنسان له عمر ينتهي إليه لا يزيد ولاينقص، والأول أرجح لأن اللفظ ورد﴿ولكل أمة﴾والله أعلم.

اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾

غابوا عنا فلا نرجوا نفعهم ولا خيرهم ﴿وشهدُوا على أنفسهم أنهمْ كانوا كافرين﴾ أي أقروا واعترفوا على أنفسهم بالكفر والضلال ، وإنما قالوا ذلك على سبيل التحسر والاعتراف بما هم عليه من الخيبة والخسران ﴿قال ادخلوا في أمم قدْ خَلَتْ من قبلكم من الجنّ والإنس في النار﴾ أي يقول الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء المكذبين بآياته : ادخلوا مع أمم أمثالكم من الفجرة في نار جهنم من كفار الأمم الماضية من الإنس والجن ﴿كلّما دخلتْ أمةٌ لعنتْ أختها﴾ أي كلما دخلت طائفة النار لعنت التي قبلها لضلالها بها قال الألوسي : يلعن الأتباع القادة يقولون : أنتم أوردتمونا هذه الموارد فلعنكم الله تعالى[1] ، والمراد أن أهل النار يلعن بعضهم بعضاً كقوله تعالى ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾ ﴿حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً﴾ أي تلاحقوا واجتمعوا في النار كلهم ﴿قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا﴾ أي قال الأتباع للقادة والرؤساء الذين أضلوهم يا ربنا هؤلاء هم الذين أضلونا عن سبيلك وزينوا لنا طاعة الشيطان ﴿فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ أي أذقهم العذاب مضاعفاً لأنهم تسببوا في كفرنا ونظير هذه الآية ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب﴾ ﴿قال لكل ضعف﴾ أي لكلٍ من القادة والأتباع عذاب مضاعف أما القادة فلضلالهم وإضلالهم ، وأما الأتباع فلكفرهم وتقليدهم ﴿ولكن لا تعلمون﴾ أي لا تعلمون هوله ولهذا تسألون لهم مضاعفة العذاب ﴿وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل﴾ أي قال القادة للأتباع : لا فضل لكم علينا في تخفيف العذاب فنحن متساوون في الضلال وفي استحقاق العذاب الأليم ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ أي فذوقوا عذاب جهنم بسبب إجرامكم ، قالوه لهم على سبيل التشفي لأنهم دعوا عليهم بمضاعفة العذاب[2] ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها﴾ أي كذبوا بآياتنا مع وضوحها واستكبروا عن الإيمان بها والعلم بمقتضاها ﴿لا تُفتَّح لهم أبواب السماء﴾ أي لا يصعد لهم عمل صالح كقوله تعالى ﴿إليه يصعد الكلم الطيِّب﴾ قال ابن عباس : لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء ، وقيل : لا تُفتَّح لأرواحهم أبواب السماء إذا قبضت أرواحهم

---

(١) روح المعاني ٨/ ١١٦ . (٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله ﴿فذوقوا العذاب﴾ من كلام الله للفريقين على سبيل التوبيخ وهو اختيار الطبري والظاهر أنه من كلام القادة للأتباع كما في البحر والله أعلم .

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾

ويؤيده حديث (إن العبد الكافر إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا يجيئه ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخطٍ من الله وغضب ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة فلا يمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة ؟ حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له . .)[١] الحديث ﴿ولا يدخلون الجنّة حتى يلجَ الجَمَلُ في سَمّ الخِيَاطِ﴾ أي لا يدخلون يوم القيامة الجنة حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة ، وهذا تمثيل لاستحالة دخول الكفار الجنة كاستحالة دخول الجمل على ضخامته في ثقب الإبرة على دقته مبالغة في التصوير ﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي أهل العصيان والإجرام ﴿لهم من جهنم مهاد﴾ أي لهم فراش من النار من تحتهم ﴿ومن فوقهم غواش﴾ أي ومن فوقهم أغطية من النار ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الشديد نجزي كل من ظلم وتعدّى حدود الله ، ولما ذكر تعالى وعيد الكافرين وما أعده لهم في الآخرة أتبعه بذكر وعد المؤمنين وما أعدّ لهم فقال ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي والذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم به وأطاعوه ﴿لا نكلّف نفساً إلا وسعها﴾ أي لا نكلف أحداً بما هو فوق طاقته أو بما يعجز عنه بل بما هو في وسعه والجملة اعتراضية بين المبتدأ والخبر قال في البحر : وفائدته التنبيه على أن ذلك العمل في وسعهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم ما فيها يوصل إليها بالعمل السهل من غير مشقة[٢] ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ هذا هو الخبر أي هؤلاء المؤمنون السعداء هم المستحقون للخلود الأبدي في جنات النعيم لا يُخرجون منها أبداً ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ﴾ أي طهرنا قلوبهم من الحسد والبغضاء حتى لا يكون بينهم إلا المحبة والتعاطف كما ورد في الحديث (يدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غلٌ)[٣] وصيغة الماضي تفيد التحقق والتثبت ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ أي تجري أنهار الجنة من تحت قصورهم زيادة في نعيمهم ﴿وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ أي وفقنا لتحصيل هذا النعيم العظيم ولولا هداية الله تعالى وتوفيقه لما وصلنا إلى هذه السعادة ﴿لقدجاءت رسل ربنا بالحق﴾ أي والله لقد صدقنا الرسل فيما أخبرونا به عن الله عز وجل ﴿ونُودوا أنَ تِلكم الجنةُ أُورثتموها بما كنتم تعملون﴾ أي وتناديهم الملائكة أن هذه هي الجنة التي أعطيتموها بسبب أعمالكم الصالحة في الدنيا قال القرطبي :ورثتم منازلهابعملكم ،ودخولكم إياها برحمةالله وفضله وفي الحديث (لن

(١) هذا من حديث أخرجه الإمام أحمد وانظره كاملاً في ابن كثير ١٨/٢ . (٢) البحر المحيط ٢٩٨/٤ . (٣) أخرجه ابن ابي حاتم .

أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

يُدخل أحداً منكم عملهُ الجنة . .)[1] الحديث ﴿ونادى أصحابُ الجنةِ أصحابَ النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم﴾ هذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، وعبَّر بالماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه أي ينادي أهلُ الجنة أهلَ النار يقولون : إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا على ألسنة رسله من النعيم والكرامة حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من الخزي والهوان والعذاب حقاً ؟ قال أهل النار مجيبين : نعم وجدناه حقاً قال الزمخشري : وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم ، وشماتةً بأهل النار ، وزيادة في غمهم[2] لمجرد الإخبار والاستخبار ﴿فأذَّن مؤذنٌ بينهم أنْ لعنةُ الله على الظالمين﴾ أي أعلن معلنٌ ونادى منادٍ بين الفريقين بأن لعنة الله على كل ظالم بالله ثم وصفه بقوله ﴿الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً﴾ أي الذين كانوا في الدنيا يمنعون الناس عن اتباع دين الله ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ أي وهم بلقاء الله في الدار الآخرة مكذبون جاحدون ﴿وبينهما حجابٌ وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلاً بسيماهم﴾ أي بين الفريقين حجاب وهو السور الذي ذكره بقوله ﴿فضُربَ بينهم بسورٍ له بابٌ﴾ يمنع من وصول أهل النار للجنة ، وعلى هذا السور رجال يعرفون كلاً من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم أي بعلامتهم التي ميّزهم الله بها قال قتادة : يعرفون أهل النار بسواد وجوههم وأهل الجنة ببياض وجوههم[3] ﴿ونادوا أصحاب الجنة أن سلامٌ عليكم﴾ أي ونادى أصحاب الأعراف أهل الجنة حين رأوهم أن سلامٌ عليكم أي قالوا لهم : سلام عليكم قال تعالى ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ أي لم يدخل أصحاب الأعراف الجنة وهم يطمعون في دخولها ﴿وإذا صُرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ قال المفسرون : أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فليسوا من أهل الجنة ولا من أهل النار ، يحبسون هناك على السور حتى يقضي الله فيهم فإذا نظروا إلى أهل الجنة سلّموا عليهم ، وإذا نظروا إلى أهل النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ، سألوا الله ألاّ يجعلهم معهم قال أبو حيان : وفي التعبير بقوله ﴿صُرفت﴾ دليل على أن أكثر أحوالهم النظر إلى أهل الجنة وأن نظرهم إلى أصحاب النار ليس من قِبَلهم بل هم محمولون عليه والمعنى أنهم إذا حُملوا على صرف أبصارهم ورأوا ما عليه أهل النار من العذاب استغاثوا بربهم من أن يجعلهم معهم[4] ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم﴾ أي من أهل النار وهم

(١) اخرجه مسلم وانظر القرطبي ٧/ ٢٠٩ . (٢) الكشاف ٢/ ١٠٦ . (٣) الطبري ١٢/ ٤٦٣ . (٤) البحر المحيط ٤/ ٣٠٣.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

رؤساء الكفرة ﴿قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون﴾ أي أيُّ شيء نفعكم جمعكم للمال واستكباركم عن الإيمان ؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ أي أهؤلاء المؤمنون الضعفاء الذين كنتم في الدنيا تسخرون منهم وتحلفون أن الله لا يدخلهم الجنة ، والاستفهام استفهام تقرير وتوبيخ وشماتة يوبخونهم بذلك ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ أي يقولون للمؤمنين ادخلوا الجنة رغم أنوف الكافرين قال الألوسي : هذا من كلام أصحاب الأعراف يقولون لأهل الجنة المشار إليهم : دوموا في الجنة غير خائفين ولا محزونين على أكمل سرور وأتم كرامة[1] ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ يخبر تعالى عن المحاورة بين أهل النار وأهل الجنة بعد أن استقر بكلٍ من الفريقين القرار واطمأنت به الدار، وعن استغاثتهم بهم عند نزول عظيم البلاء من شدة العطش والجوع والمعنى ينادونهم يوم القيامة أغيثونا بشيء من الماء لنسكن به حرارة النار والعطش أو مما رزقكم الله من غيره من الأشربة فقد قتلنا العطش ﴿قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾ أي منع الكافرين شراب الجنة وطعامها قال ابن عباس: ينادي الرجل أخاه وأباه فيقول: قد احترقت فأفض عليَّ من الماء ! فيقال لهم أجيبوهم فيقولون : إن الله حرمهما على الكافرين[2] ، ثم وصف تعالى الكافرين بقوله ﴿الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً﴾ أي هزءوا من دين الله وجعلوا الدين سخرية ولعباً ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ أي خدعتهم بزخارفها العاجلة وشهواتها القاتلة وهذا شأنها مع أهلها تغرُّ وتضر، وتخدع ثم تصرع ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ أي ففي هذا اليوم نتركهم في العذاب كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا فلم يخطر ببالهم ولم يهتموا به قال الألوسي : الكلام خارجٌ مخرج التمثيل أي نتركهم في النار وننساهم مثل نسيانهم لقاء هذا اليوم العظيم الذي ينبغي ألا يُنسى[3] وقال ابن كثير : أي يعاملهم معاملة من نسيهم لأنه تعالى لا يشذّ عن علمه شيءٌ ولا ينساه[4] ﴿وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ أي وكما كانوا منكرين لآيات الله في الدنيا ، يكذبون بها ويستهزءون ، ننساهم في العذاب .

البَــلاَغَــة : ١ ـ ﴿عند كل مسجد﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية لأن المراد بالمسجد هنا الصلاة

---

(١) روح المعاني ٨/ ١٢٦ . (٢) الطبري ١٢ ٤٧٣ . (٣) روح المعاني ٨/ ١٢٧. (٤) مختصر ابن كثير ٢/ ٢٤ .

والطواف ، ولما كان المسجد مكان الصلاة أطلق ذلك عليه .

٢ ـ ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ كناية عن عدم قبول العمل ، فلا يقبل لهم دعاء أو عمل .

٣ ـ ﴿حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ فيه تشبيه ضمني أي لا يدخلون الجنة بحالٍ من الأحوال إلا إذا أمكن دخول الجمل في ثقب الإبرة ، وهو تمثيلٌ للاستحالة .

٤ ـ ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾ قال صاحب البحر : هذه استعارة لما يحيط بهم من النار من كل جانب كقوله ﴿لهم من فوقهم ظُلَلٌ من النار ومن تحتهم ظُلَلٌ﴾[1] .

٥ ـ ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ بين « ظهر » و « بطن » طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

فـائـدة : يروى أن الرشيد كان له طبيبٌ نصراني حاذق فقال ذلك الطبيبُ لأحد العلماء : ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلمُ علمان : علم الأبدان وعلم الأديان فقال له العالم : قد جمع الله تعالى الطبَّ كله في نصف آية من كتابه قال وما هي ؟ قال قوله تعالى ﴿وكلوا واشربوا ولا تُسرفوا﴾فقال النصراني : ولا يُؤثر عن رسولكم شيء في الطب فقال العالم : قد جمع رسولنا الطب في ألفاظ يسيرة قال وما هي ؟ قال قوله (ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يُقمن صلبه) الحديث فقال النصراني : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً[2] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم . . إلى . . وما كانوا مؤمنين﴾ من آية (٥٢) إلى نهاية آية (٧٢) .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى حال الكفار الأشقياء وخسارتهم الفادحة في الآخرة ، ذكر هنا أنه لا حجة لأحد فقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لهداية البشرية ،ثم ذكر قصص بعض الأنبياء فبدأ بنوح عليه السلام شيخ الأنبياء ثم أعقبه بذكر هودٍ عليه السلام وموقف المشركين من دعوة الرسل الكرام .

اللغَة : ﴿تأويله﴾ عاقبة أمره وما يئول إليه من آل يئول إذا صار إليه ﴿استوى﴾ الاستواء: العلوّ والاستقرار قال الجوهري : استوى على ظهر الدابة استقرّ ، واستوى إلى السماء قصد ، واستوى الشيءُ إذا اعتدل ﴿يغشي﴾ يغطّي ﴿حثيثاً﴾ سريعاً والحثُّ : الإعجال والسرعة ﴿تبارك﴾ تفاعل من البركة وهي الكثرة والاتساع قال الأزهري : تبارك أي تعالى وتعاظم وارتفع ﴿تضرعاً﴾ تذللاً واستكانة وهو إظهار الذل الذي في النفس مع الخشوع ﴿وخفية﴾ سراً ﴿بُشراً﴾مبشرة بالمطر ﴿أقلّت﴾ حملت ﴿نَكِداً﴾ العسِر القليل ﴿آلاء﴾ الآلاء النِّعَم واحدها « ألَى » كمِعًى .

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٢٩٨ . (٢) محاسن التأويل ٧/ ٢٦٦٤ .

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾

التفسير: ﴿ولقد جئناهم بكتاب﴾ أي ولقد جئنا أهل مكة بكتاب هو القرآن العظيم ﴿فصّلناه على علم﴾ أي بينّا معانيه ووضحنا أحكامه على علم منا حتى جاء قيّماً غير ذي عوج ﴿هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي هداية ورحمة وسعادة لمن آمن به ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ أي ما ينتظر أهل مكة إلا عاقبة ما وُعدوا به من العذاب والنكال قال قتادة : تأويله عاقبتُه ﴿يوم يأتي تأويله﴾ هو يوم القيامة ﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾ أي يقول الذين ضيّعوا وتركوا العمل به في الدنيا ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أي جاءتنا الرسل بالأخبار الصادقة وتحقق لنا صدقهم فلم نؤمن بهم ولم نتبعهم قال الطبري : أقسم المساكين حين حلّ بهم العقاب أن رسل الله قد بلّغتهم الرسالة ونصحتْ لهم وصدّقتْهم حين لا ينفعهم ولا ينجيهم من سخط الله كثرةُ القيل والقال[١] ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾ أي هل لنا اليوم شفيع يخلصنا من هذا العذاب ؟ استفهام فيه معنى التمني ﴿أو نردُّ فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾ أو هل لنا من عودة إلى الدنيا لنعمل صالحاً غير ما كنا نعمله من المعاصي وقبيح الأعمال ؟ قال تعالى رداً عليهم ﴿قد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي خسروا أنفسهم حيث ابتاعوا الخسيس الفاني من الدنيا بالنفيس الباقي من الآخرة ، وبطل عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة والأصنام ، ثم ذكر تعالى دلائل القدرة والوحدانية فقال ﴿إنّ ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ أي إن معبودكم وخالقكم الذي تعبدونه هو المنفرد بقدرة الإيجاد الذي خلق السموات والأرض في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا قال القرطبي : لو أراد خلقها في لحظة ولكنه أراد أن يعلّم العبادَ التثبت في الأمور[٢] ﴿ثم استوى على العرش﴾ أي استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف كما هو مذهب السلف وكما قال الإمام مالك رحمه الله : الاستواء معلوم ، والكيْفُ مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة وقال الإمام أحمد رحمه الله : أخبارُ الصفات تُمَرُّ كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل فلا يقال : كيف ؟ ولِمَ ؟ نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء ، وكما شاء بلا حدٍّ ولا صفةٍ يبلغها واصف أو يحدها حادٌّ ، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونكِلُ الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل[٣] وقال القرطبي : لم ينكر أحدٌ من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقةً وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تُعلم حقيقته[٤] ﴿يُغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ أي يغطي الليل على النهار فيذهب بضوئه ويطلبه سريعاً حتى يدركه ﴿والشمسَ والقمرَ والنجومَ

(١) الطبري ١٢/ ٤٨٠ . (٢) القرطبي ٧/ ٢١٩ . (٣) محاسن التأويل ٧/ ٢٧٠٨ . (٤) القرطبي ٧/ ٢١٩ .

وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ

مسخراتٍ بأمره﴾ أي الجميع تحت قهره ومشيئته وتسخيره ﴿ألا له الخلقُ والأمر﴾ أي له الملك والتصرف التام في الكائنات ﴿تبارك الله ربُّ العالمين﴾ أي تعظّم وتمجّد الخالق المبدع رب العالمين ﴿أدعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ أي أدعو الله تذللاً وسراً بخشوع وخضوع ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ أي لا يحب المعتدين في الدعاء بالتشدق ورفع الصوت وفي الحديث (إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً) ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ أي لا تفسدوا في الأرض بالشرك والمعاصي بعد أن أصلحها الله ببعثة المرسلين ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ أي خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ أي رحمته تعالى قريبة من المطيعين الذين يمتثلون أوامره ويتركون زواجره ﴿وهو الذي يُرسل الرياح بُشراً بين يديْ رحمته﴾ أي يرسل الرياح مبشرة بالمطر قال في البحر : ومعنى بين يدي رحمته أي أمام نعمته وهو المطر الذي هو من أجلّ النعم وأحسنها أثراً على الإنسان[1] ﴿حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً﴾ أي حتى إذا حملت الرياح سحاباً مثقلاً بالماء ﴿سقناه لبلد ميت﴾ أي سقنا السحاب إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها ﴿فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات﴾ أي أنزلنا في ذلك البلد الميت الماء فأخرجنا بذلك الماء من كل أنواع الثمرات ﴿كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكّرون﴾ أي مثل هذا الإخراج نُخرج الموتى من قبورهم لعلكم تعتبرون وتؤمنون قال ابن كثير : وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله المثل ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال لعلكم تذكّرون[2] ﴿والبلدُ الطيبُ يخرجُ نباتُه بإذن ربه﴾ أي الأرضُ الكريمةُ التربة يخْرج النبات فيها وافياً حسناً غزير النفع بمشيئة الله وتيسيره، وهذا مثل للمؤمن يسمع الموعظة فينتفع بها ﴿والذي خبُث لا يخرج إلا نكِداً﴾ أي والأرض إذا كانت خبيثة التربة كالحرّة أو السبخة[3] لا يخرج النبات فيها إلا بعسر ومشقة وقليلاً لا خير فيه، وهذا مثلٌ للكافر الذي لا ينتفع بالموعظة قال ابن عباس: هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالمؤمن طيّب وعمله طيب كالأرض الطيبة ثمرها طيب ، والكافر خبيثٌ وعملهُ خبيث كالأرض السبخة المالحة لا ينتفع بها[4] ﴿كذلك نصرّف الآياتِ لقومٍ يشكرون﴾ أي كما ضربنا هذا المثل كذلك نبيّن

(١) البحر المحيط ٣١٧/٤ . (٢) مختصر ابن كثير ٢٧/٢ . (٣) الحرّة : الأرض ذات الحجارة السود ، والسبخة : الأرض ذات الملح .
(٤) الطبري ٤٩٧/١٢ .

ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ * وَإِلَىٰ عَادٍ

وجوه الحجج ونكررها آية بعد آية ، وحجة بعد حجة لقوم يشكرون الله على نعمه ، وإنما خصَّ الشاكرين بالذكر لأنهم المنتفعون بسماع القرآن قال الألوسي : أي مِثلَ هذا التصريف البديع نردِّد الآيات الدالة على القدرة الباهرة ونكررها لقومٍ يشكرون نعم الله تعالى ، وشكرُها بالتفكر والاعتبار بها[1] ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ اللام جواب قسمٍ محذوف أي والله لقد أرسلنا نوحاً، ونوحٌ شيخ الأنبياء لأنه أطولهم عمراً وهو أول نبيٍّ بعثه الله بعد إدريس ، ولم يلق نبيٌّ من الأذى مثل نوح[2] ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي وحّدوا الله ولا تشركوا به فما لكم إلهٌ مستحقٌ للعبادة غيره ﴿إني أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيم﴾ أي إن أشركتم به ولم تؤمنوا فأنا أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيم هو يوم القيامة ﴿قال الملأُ من قومه إنا لنراك في ضلالٍ مبين﴾ أي قال الأشراف والسادة من قومه إنا لنراك يا نوح في ذهابٍ عن طريق الحق والصواب واضح جلي قال أبو حيان : ولم يجبه من قومه إلا أشرافُهم وسادتهم وهم الذين يتعاصون على الرسل لانغماس عقولهم بالدنيا وطلب الرياسة[3]، وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة ﴿قال يا قوم ليس بي ضلالة[4] ولكني رسولٌ من ربِّ العالمين﴾ أي ما أنا بضال ولكنْ أنا مرسل إليكم من عند ربكم المالك لأموركم الناظر لكم بالمصلحة ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما تعلمون﴾ أي أنا أبلغكم ما أرسلني الله به إليكم وأقصد صلاحكم وخيركم وأعلم من الأمور الغيبية أشياء لا علم لكم بها قال ابن كثير : وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات[5] ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجلٍ منكم﴾ أي لا تعجبوا من هذا فإن هذا ليس بعجيب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمةً بكم ولطفاً وإحساناً إليكم ﴿ليُنْذركم ولتتقوا ولعلكم تُرحمون﴾ أي ليخوفكم هذا الرسول من العذاب إن لم تؤمنوا ولتتقوا ربكم وتنالكم الرحمة بتقواه ﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفُلك﴾ أي كذبوا نوحاً مع طول مدة إقامته فيهم فأنجاه الله والمؤمنين معه في السفينة

---

(١) روح المعاني ٨/ ١٤٨ . (٢) انظر ترجمة نوح مفصلة في كتابنا « النبوة والأنبياء » . (٣) البحر ٤/ ٣٢٠ . (٤) لم يأت التركيب لستُ في ضلال مبين بل جاء في غاية الحسن ﴿ليس بي ضلالة﴾ لنفي أن يلتبس أو يختلط به ضلالة ما، وهذا أبلغ من الانتفاء من الضلال إذ لم يتعلق به ولا ضلالة واحدة ، أفاده صاحب البحر . (٥) مختصر ابن كثير ٢/ ٢٨ .

أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ

﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي أهلكنا المكذبين منهم بالغرق ﴿إنهم كانوا قوماً عمين﴾ أي عميت قلوبهم عن الحق فهم لا يبصرونه ولا يهتدون له قال ابن عباس : عميتْ قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد[1] ﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً﴾ أي وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هوداً وكانت مساكنهم بالأحقاف باليمن ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي قال لهم رسولهم وحّدوا الله فليس لكم إله غيره ﴿أفلا تتقون﴾ أي أفلا تخافون عذابه ؟ ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أي قال السادة والقادة منهم ﴿إنا لنراك في سفاهةٍ وإنا لنظنُّك من الكاذبين﴾ أي نراك في خفة حلم وسخافة عقل وإننا لنظنك من الكاذبين في ادعائك الرسالة ﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسولٌ من رب العالمين﴾ أي ليس بي كما تزعمون نقص في العقل ولكني مرسل إليكم بالهداية من رب العالمين ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ أي أبلغكم أوامر الله وأنا ناصح لكم فيما أدعوكم إليه ، أمينٌ على ما أقول لا أكذب فيه قال الزمخشري : وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام مِمَّنْ نسبَهم إلى السفاهة والضلالة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم وترك المقابلة - أدبٌ حسنٌ وخُلُق عظيم، وتعليم للعباد كيف يخاطبون السفهاء ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم[2] ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجلٍ منكم لينذركم﴾ أي لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم لقاء الله ويخوفكم عذابه ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ اي اذكروا نعمة الله حين استخلفكم في الأرض بعد إهلاك قوم نوح ﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾ أي زاد في أجسامكم قوةً وضخامة ﴿فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾ أي اذكروا نعم الله عليكم كي تفلحوا وتفوزوا بالسعادة ﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا﴾ أي أجئتنا ياهود تتوعدنا بالعذاب كي نعبد الله وحده ونهجر عبادة الآلهة والأصنام ونتبرأ منها ؟ ﴿فاتتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ أي فأتنا بما تعدنا به من العذاب فلن نؤمن لك إن كنت من الصادقين في قولك ﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس

(١) البحر ٤/٣٢٣ . (٢) الكشاف ٢/١١٦.

وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

وغضب﴾ أي قد حلّ بكم عذاب وغضب من الله **﴿أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزّل الله بها من سلطان﴾** أي أتخاصمونني في أصنام لا تضر ولا تنفع ما أنزل الله بعبادتها من حجة أو برهان **﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾** أي فانتظروا نزول العذاب إني من المنتظرين لما يحل بكم وهذا غاية الوعيد والتهديد **﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منا﴾** أي أنجينا هوداً والذين معه من المؤمنين رحمة منا لهم **﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا﴾** أي استأصلناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم **﴿وما كانوا مؤمنين﴾** أي كذبوا ولم يؤمنوا فاستحقوا العذاب قال أبو السعود : أي أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرعووا عن ذلك أبداً فأهلكهم الله بالريح العقيم[1] .

البَلاَغَة : ١ - **﴿ألا له الخلق والأمر﴾** الآية على قلة ألفاظها جمعت معاني كثيرة استوعبت جميع الأشياء والشئون على وجه الاستقصاء حتى قال ابن عمر : من بقي له شيء فليطلبه وهذا الأسلوب البليغ يسمى « إيجاز قِصَر » ومداره على جمع الألفاظ القليلة للمعاني الكثيرة .

٢ - **﴿سقناه لبلدٍ ميّت﴾** وصفُ البلد بالموت استعارةٌ حسنة لجدبه وعدم نباته كأنه كالجسد الذي لا روح فيه من حيث عدم الانتفاع به .

٣ - **﴿كذلك نُخرج الموتى﴾** أي مثل إخراج النبات من الأرض نخرج الموتى من قبورهم فهو تشبيه « مرسل مجمل » ذكرت الأداة ولم يذكر وجه الشبه .

٤ - **﴿وقطعنا دابر﴾** قطع الدابر كنايةٌ لطيفةٌ عن استئصالهم جميعاً بالهلاك .

تــنبيــه : ذكر العلامة الألوسي عند قوله تعالى **﴿أدعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾** عن الحسن البصري أنه قال : لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم وذلك أنه تعالى يقول **﴿أدعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾** وأنه سبحانه ذكر عبداً صالحاً فقال **﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾** ثم قال : وذكروا للدعاء آداباً كثيرة منها : أن يكون على طهارة ، وأن يستقبل القبلة ، وتخلية القلب من الشواغل ، وافتتاحه واختتامه بالصلاة على النبي ﷺ ورفع اليدين نحو السماء ، وإشراك المؤمنين فيه ، وتحري ساعات الإجابة كثلث الليل الأخير ، ووقت إفطار الصائم ، ويوم الجمعة وغير ذلك[2] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً . . إلى . . فكيف آسى على قوم كافرين﴾

من آية (٧٣) إلى نهاية آية (٩٣)

---

(١) أبو السعود ٢/ ١٧٤ . (٢) روح المعاني ٨/ ١٣٩ .

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟

المناسبة : لما ذكر تعالى في أول السورة قصة آدم ، وما اتصل بها من آثار قدرته ، وغرائب صنعته ، الدالة على توحيده وربوبيته ، وأقام الحجة الدامغة على صحة البعث بعد الموت ، أتبع ذلك بقصص الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم ، فذكر نوحاً وهوداً وأعقبه هنا بذكر قصة صالح وشعيب ، وموقف المعاندين للرسل الكرام .

اللغة : ﴿ناقة﴾ الناقة : الأنثى من الجمال ، وعقر الناقة ضرب قوائمها بالسيف ﴿عتَوْا﴾ استكبروا عتا عتواً أي استكبر والليلُ العاتي : الشديد الظلمة ﴿جاثمين﴾ لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر ﴿الرجفة﴾ الطامة التي يرجف لها الإنسان أي يتزعزع ويضطرب وأصل الرجف الاضطراب رجفت الأرض اضطربت ﴿الغابرين﴾ الباقين في عذاب الله ، والغابر بمعنى الباقي ويجيء بمعنى الماضي والذاهب ومنه قول الأعشى : في الزمن الغابر فهو من الأضداد كما في الصحاح ﴿يغْنَوا﴾ يقيموا يقال غَنَى بالمكان إذا أقام به دهراً طويلاً ﴿عَفَوا﴾ كثروا ونموا من عفا النبات إذا كثر .

التفسير : ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي وحّدوا الله ولا تشركوا به ﴿قد جاءتكم آيةٌ من ربكم﴾ أي معجزة ظاهرة جلية تدل على صحة نبوتي ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ هذا بيانٌ للمعجزة أي هذه الناقة معجزتي إليكم وإضافتها إلى الله للتشريف والتعظيم لأنها خلقت بغير واسطة قال القرطبي: أخرج لهم الناقة حين سألوه من حجر صلد[1] ﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ أي اتركوها تأكل من رزق ربها ﴿ولا تمسوها بسوءٍ فيأخذكم عذاب أليم﴾ أي لا تتعرضوا لها بشيءٍ من السوء أصلاً إكراماً لها لأنها آية الله ،والعذاب الأليم هو ما حلَّ بهم حين عقروها﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾ أي خلفاء في الأرض قال الشهاب : لم يقل خلفاء عاد إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً ﴿وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً﴾ أي أسكنكم في أرض الحِجْر تبنون في سهولها قصوراً رفيعة﴿وتنحتون الجبال بيوتاً﴾ أي تنحتون الجبال لسكناكم قال القرطبي : اتخذوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم فإن الأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم[2] ﴿فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ أي اذكروا نعم الله عليكم واشكروه على ما تفضل به ولا تعيثوا في الأرض فساداً ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين

(١) القرطبي ٧/ ٢٣٨ . (٢) القرطبي ٧/ ٢٣٩ .

لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ

استضعفوا لمن آمن منهم﴾ أي قال الأشراف المستكبرون من قوم صالح للمؤمنين المستضعفين من أتباع صالح عليه السلام **﴿أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه﴾** أي أن الله أرسله إلينا وإليكم ، وهذا قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء **﴿قالوا إنّا بما أُرسل به مؤمنون﴾** أي أجابوهم بالأسلوب الحكيم بالإيمان برسالته قال أبو حيان : وعدولهم عن قولهم هو مرسل إلى قولهم **﴿إنّا بما أُرسل به مؤمنون﴾** في غاية الحسن إذْ أمر رسالته معلوم واضح مسلَّم لا يدخله ريب لما أتى به من هذا المعجز الخارق العظيم فلا يحتاج أن يسأل عن رسالته[١] **﴿قال الذين استكبروا إنّا بالذي آمنتم به كافرون﴾** أي قال المستكبرون نحن كافرون بما صدَّقتم به من نبوة صالح وإنما لم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون إظهاراً لمخالفتهم إياهم ورداً لمقالتهم **﴿فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم﴾** أي نحروا الناقةواستكبروا عن امتثال أمر الله **﴿وقالوا يا صالح أئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾** أي جئنا يا صالح بما تعدنا من العذاب الذي تخوفنا به إن كنت يا صالح حقاً رسولاً ،قالوا ذلك استهزاء به وتعجيزاً **﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾** أخذتهم الزلزلة الشديدة فصاروا في منازلهم هامدين موتى لا حراك بهم قال في البحر : أخذتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوتُ كل شيء له صوتٌ في الأرض فقطعت قلوبهم وهلكوا[٢] **﴿فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالةربي ونصحتُ لكم ولكنْ لا تحبون الناصحين﴾** أي أدبر عنهم صالح بعد هلاكهم ومشاهدة ما جرى عليهم وقال على سبيل التفجع والتحسر عليهم : لقد بلّغتكم الرسالة وحذرتكم عذاب الله وبذلت وسعي في نصيحتكم ولكن شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم قال الزمخشري **﴿ولكنْ لا تحبون الناصحين﴾** حكاية حال ماضية قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت ـ وكان قد نصحه حياً فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة ـ : يا أخي كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل مني[٣] ؟ **﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين﴾** أي واذكرْ وقت أن قال لوط لقومه أهل سدوم على سبيل الإنكار والتوبيخ : أتفعلون تلك الفعلة الشنيعة المتناهية في القبح التي ما عملها أحد قبلكم في زمنٍ من الأزمان ! والفاحشة هي إتيان الذكور في الأدبار ، أنكر عليهم أولاً فعلها ثم

---

(١) البحر ٤/ ٣٣٠ . (٢) البحر ٤/ ٣٣١. (٣) الكشاف ٢/ ١٢٤.

جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ

وبخهم بأنهم أول من فعلها قال أبو حيان : ولما كان هذا الفعل معهوداً قبحه ، ومركوزاً في العقول فحشه أتى به معرفاً بالألف واللام ﴿الفاحشة﴾ بخلاف الزنى فإنه قال فيه ﴿إنه كان فاحشة﴾ فأتى به منكراً ، والجملة المنفية ﴿ما سبقكم﴾ تدل على أنهم أول من فعل هذه الفعلة القبيحة وأنهم مبتكروها ، والمبالغة في ﴿من أحد﴾ حيث زيدت مِنْ لتأكيد نفي الجنس ، وفي الإتيان بعموم ﴿العالمين﴾ جمعاً قال عمرو بن دينار : ما رؤي ذكرٌ على ذكر قبل قوم لوط[1] ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ هذا بيانٌ للفاحشة وهو توبيخٌ آخر أشنع مما سبق لتأكيده بإنَّ وباللام أي إنكم أيها القوم لتأتون الرجال في أدبارهم شهوة منكم لذلك الفعل الخبيث المكروه دون ما أحله الله لكم من النساء ثم أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح واتباع الشهوات فقال ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي لا عذر لكم بل أنتم عادتكم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء قال أبو السعود : وفي التقييد بقوله ﴿شهوة﴾ وصفٌ لهم بالبهيمية الصِّرفة وتنبيهٌ على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النسل لاقضاء الشهوة[2] ﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناسٌ يتطهرون﴾ أي ما كان جوابهم للوطٍ إذ وبخهم على فعلهم القبيح إلا أن قال بعضهم لبعض : أخرجوا لوطاً وأتباعه المؤمنين من بلدتكم لأنهم أناس يتنزهون عما نفعله نحن من إتيان الرجال في الأدبار ، قال ابن عباس ومجاهد : ﴿إنهم أناسٌ يتطهرون﴾ أي يتقذرون عن إتيان أدبار الرجال والنساء ، قالوا ذلك سخرية واستهزاءً بلوط وقومه وعابوهم بما يمدح به الإنسان ﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أي أنجيناه من العذاب الذي حلّ بقومه وأهله المؤمنين إلا امرأته فلم تنج وكانت من الباقين في ديارهم الهالكين قال الطبرى : أى أنجينا لوطاً وأهله المؤمنين به إلا امرأته فإنها كانت للوطٍ خائنة وبالله كافرة فهلكت مع من هلك من قوم لوط حين جاءهم العذاب[3] ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي أرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً هو حجارة من سجيل كما فى الآية الأخرى ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾ وشبه العذاب بالمطر المدرار لكثرته حيث أرسل إرسال المطر ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ أي انظر أيها السامع إلى عاقبة هؤلاء المجرمين كيف كانت ؟ وإلى أي شيءٍ صارت ؟ هل كانت إلا البوار والهلاك ؟! ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيرُه﴾ أي وأرسلنا إلى أهل مدين شعيباً داعياً لهم إلى توحيد الله وعبادته قال ابن كثير : ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب « معان » من طريق الحجاز

(١) البحر ٤/ ٣٣٣ . (٢) أبو السعود ٢/ ١٧٨ . (٣) الطبري ١٢/ ٥٥١ .

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾

وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره[١] ﴿قد جاءتكم بينةٌ من وبكم﴾ أي معجزة تدل على صدقي ﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾ أي أتموا للناس حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به والوزن الذي تزنون به ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ أي لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تُنْقصوهم إياها ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ أي لا تعملوا بالمعاصي بعد إصلاحها ببعثة الرسل ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي ما أمرتكم به من إخلاص العبادة لله وإيفاء الناس حقوقهم وترك الفساد في الأرض خير لكم إن كنتم مصدقين لي في قولي ﴿ولا تقعدوا بكل صراطٍ تُوعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به﴾ أي لا تجلسوا بكل طريق تخوّفون من آمن بالقتل قال ابن عباس : كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه على نحو ما كانت تفعله قريش مع رسول الله ﷺ[٢] ﴿وتبغونها عوجاً﴾ أي تريدون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة بمعنى تصويرهم أن دين الله غير مستقيم كما يقول الضالون في هذا الزمان :«هذا الدين لا ينطبق مع العقل » لأنه لا يتمشى مع أهوائهم الفاجرة ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثّركم﴾ أي كنتم قلة مستضعفين فأصبحتم كثرة أعزة فاشكروا الله على نعمته ﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ هذا تهديدلهم أي انظروا ما حلّ بالأمم السابقة حين عصوا الرسل كيف انتقم الله منهم واعتبروا بهم ﴿وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذي أُرسلت به وطائفةٌ لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ أي إذا كان فريق صدقوني فيما جئتهم به وفريق لم يصدقوني فاصبروا حتى يفصل الله بحكمه العادل بيننا وهو خير الفاصلين قال أبو حيان : هذا الكلام من أحسن ما تلطّف به في المحاورة إذ برز المتحقق في صورة المشكوك وهو من بارع التقسيم فيكون وعداً للمؤمنين بالنصر ووعيداً للكافرين بالعقوبة والخسار[٣] ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ أي قال أشراف قومه المستكبرين عن الإيمان بالله ورسله ﴿لنخرجنك يا شعيبُ والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنَّ في ملتنا﴾ أقسموا على أحد الأمرين: إما إخراج شعيب وأتباعه وإما العودة إلى ملتهم أي إلى الكفر والمعنى لنخرجنك يا شعيب ومن آمن بك من بين أظهرنا أو لترجعن أنت وهم إلى ديننا قال شعيب مجيباً لهم ﴿أو لو كنا

(١) مختصر ابن كثير ٢/٥٣. (٢) البحر ٤/ ٣٣٨. (٣) البحر ٤/ ٣٤٠.

قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾

كارهين﴾ أي أتجبروننا على الخروج من الوطن أو العودة في ملتكم ولو كنّا كارهين لذلك ؟ والاستفهام للإنكار ﴿ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾ أي إن عدنا إلى دينكم بعد أن أنقذنا الله منه بالإيمان وبصّرنا بالهدى نكون مختلقين على الله أعظم أنواع الكذب ، وهذا تيئيسٌ للكفار من العودة إلى دينهم ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾ أي لا ينبغي ولا يصح لنا أن نعود إلى ملتكم ودينكم إلا إذا شاء الله لنا الانتكاس والخذلان فيمضي فينا قضاؤه ﴿وسع ربنا كل شيء علماً﴾ أي وسع علمه كل الأشياء ﴿على الله توكلنا﴾ أي اعتمادنا على الله وهو الكافي لمن توكل عليه ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ أي احكم بيننا وبينهم بحكمك الحق الذي لا جورفيه ولا ظلم وأنت خير الحاكمين ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون﴾ أي قال الأشراف من قومه الفجرة الكفرة : إذا اتبعتم شعيباً وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه إنكم إذاً لخاسرون لاستبدالكم الضلالة بالهدى قال تعالى ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ أي فأخذتهم الزلزلة العظيمة فأصبحوا ميّتين جاثمين على الركب ﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يَغنوا فيها﴾ أي أهلك الله المكذبين كأنهم لم يقيموا في ديارهم منعَّمين ﴿ الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ إخبارٌ عنهم بالخسار بعد الهلاك والدمار ﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم﴾ قاله تأسفاً لشدة حزنه عليهم لأنهم لم يتبعوا نصحه ﴿فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ أي كيف أحزن على من لا يستحق أن يُحزن عليه قال الطبري : أي كيف أحزن على قوم جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وأتوجع لهلاكهم[1] ؟

البَلاغَة : ١ ـ ﴿هذه ناقة الله﴾ الإضافة للتشريف والتكريم .

٢ ـ ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ التنكير للتقليل والتحقير أي لا تمسوها بأدنى سوء .

(١) الطبري ١٢/ ٥٧١

٣ ـ ﴿أتأتون الفاحشة﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتشنيع .
٤ ـ ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ يسمى هذا النوع في علم البديع التعريض بما يوهم الذم ولذلك قال ابن عباس : عابوهم بما يُمدح به .
٥ ـ ﴿على الله توكلنا﴾ إظهار الاسم الجليل للمبالغة في التضرع وتقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر .
٦ ـ بين لفظ ﴿مؤمنون﴾ و ﴿كافرون﴾ طباقٌ .

فـائـدة : الذى عقر الناقة هو « قُدار بن سالف » وإنما نسب الفعل إليهم جميعاً في قوله تعالى ﴿ فعقروا الناقة﴾ لأنه كان برضاهم وأمرهم ، والراضي بالعمل القبيح شريك في الجريمة .

قال الله تعالى : ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي . . إلى . . فينظر كيف تعملون﴾
من آية (٩٤) إلى نهاية آية (١٢٩)

المنـاسـبة : لما ذكر تعالى قصص الأنبياء (نـوح ، هود ، صالـح ، لوط ، شعيب) ومـا حلَّ بأقوامهم من العذاب والنكال حين لم تجْد فيهم الموعظة ، ذكر تعالى هنا سنته الإلهية في الانتقام ممن كذَّب أنبياءه وذلك بالتدرج معهم بالبأساء والضراء ، ثم بالنعمة والرخاء ، ثم بالبطش بهم إن لم يؤمنوا ثم أعقب ذلك بقصة موسى مع الطاغية فرعون وفيها كثير من العبر والعظات .

اللغـة : ﴿البأساء﴾ شدة الفقر ﴿الضراء﴾ الضرُّ والمرض ﴿عفَوْا﴾ كثروا ونموا ﴿بغتة﴾ فجأة ﴿ملائه﴾ أشراف قومه ﴿أرْجِهْ﴾ أخِّرْ ﴿صاغرين﴾ أذلاء ﴿تلقف﴾ تبتلع وتلتقم ﴿يأفكون﴾ الإفـك : الكذب ﴿أفرغْ﴾ الإفراغ : الصبُّ أى اصببه علينا .

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

التفسير : ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ في الكلام حذفٌ أي وما أرسلنا في قرية من نبي فكذبه أهلها ﴿إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء﴾ أي عاقبناهم بالبؤس والفقر ، والمرض وسوء الحال ﴿لعلهم يضرَّعون﴾ أى كي يتضرعوا ويخضعوا ويتوبوا من ذنوبهم ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ أي ثم أبدلناهـم بالفقـر والمرض، الغنى والصحة ﴿حتى عفَوْا﴾ أي حتى كثروا ونموا ﴿وقالـوا قد مسَّ آباءنـا الضرَّاء والسرَّاء﴾ أي أبطرتهم النعمة وأشروا فقالوا كفراناً لها : هذه عادة الدهر وقد مسَّ آباءنا مثل ذلك من المصائب ومـن الرخاء وليست بعقوبة من الله فلنبق على ديننا ، والغرضُ أن الله ابتلاهم بالسيئة لينيبوا إليه فما فعلوا ، ثم بالحسنة ليشكروا فما فعلوا ، فلم يبق إلا أن يأخذهم بالعذاب ولهذا قال تعالى ﴿فأخذناهم بغتةً وهم لا

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم
بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ
ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟

يشعرون﴾ أي أخذناهم بالهلاك والعذاب فجأةً من حيث لا يدرون ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا﴾ أي ولو أن أهل تلك القرى الذين كَذَّبوا وأُهلكوا آمنوا بالله ورسله واتقوا الكفر والمعاصي ﴿لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض﴾ أي لوسّعنا عليهم الخير من كل جانب وقيل : بركاتُ السماء المطرُ ، وبركات الأرض الثمارُ ، قال السدي : فتحنا عليهم أبواب السماء والأرض بالرزق[1] ﴿ولكنْ كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ أي ولكنْ كذّبوا الرسل فعاقبناهم بالهلاك بسوء كسبهم ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون﴾ الهمزة للإنكار أي هل أمن هؤلاء المكذبون أن يأتيهم عذابنا ليلاً وهم نائمون غافلون عنه ؟ ﴿أوَ أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحىً وهم يلعبون﴾؟ أم هل أمنوا أن يأتيهم عذابنا ونكالنا نهاراً جهاراً وهم يلهون ويشتغلون بما لا يُجدي كأنهم يلعبون ؟ ﴿أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ أي أفأمنوا استدراجه إياهم بالنعمة حتى يهلكوا في غفلتهم ؟ فإنه لا يأمن ذلك إلا القوم الذين خسروا عقولهم وإنسانيتهم فصاروا أخسَّ من البهائم قال الحسن البصري : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفقٌ خائفٌ وجلٌ ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو مطمئن آمن[2] ﴿أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها﴾ أي أولم يتضح ويتبيّن للذين يخلفون الأرض بعد هلاك أهلها الذين كانوا يعمرونها قبلهم ، والمراد بها كفار مكة ومن حولهم ﴿أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ أي لو أردنا لأهلكناهم بسبب ذنوبهم كما أهلكنا من قبلهم قال في البحر : أي قد علمتم ما حلّ بهم أفما تحذرون أن يحل بكم ما حلّ بهم فذلك ليس بممتنع علينا لو شئنا[3] ﴿ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾ أي ونختم على قلوبهم فلا يقبلون موعظةً ولا تذكيراً سماع منتفع بها ﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها﴾ أي تلك القرى المذكورة نقصُّ عليك يا محمد بعض أخبارها وما حصل لأهلها من الخسف والرجفة والرجم بالحجارة ليعتبر بذلك من يسمع وما حدث أهولُ وأفظع ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي جاءتهم بالمعجزات والحجج القاطعات ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾ أي ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل لتكذيبهم إياهم قبل مجيئهم بالمعجزات وبعد مجيئهم بها فحالهم واحد في العتو والضلال قال الزمخشري : أي استمروا على التكذيب من لدنْ مجيء

---

(١) البحر ٤/٣٤٨ . (٢) ابن كثير ٢/٣٨ المختصر . (٣) البحر ٤/ ٣٥٠ .

لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا

الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرِّين لا يرعوون مع تكرر المواعظ عليهم وتتابع الآيات[1] ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ أي مثل ذلك الطبع الشديد المحكم نطبع على قلوب الكافرين فلا يكاد يؤثر فيهم النُّذر والآيات ، وفيه تحذير للسامعين ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ أي ما وجدنا لأكثر الناس من وفاء للعهد بل وجدناهم خارجين عن الطاعة والامتثال قال ابن كثير: والعهد الذي أخذه هو ما فطرهم عليه وأخذه عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم فخالفوه وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع[2] ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا﴾ أي ثم بعثنا من بعد الرسل المتقدم ذكرهم موسى بن عمران بالمعجزات الباهرات والحجج الساطعات ﴿إلى فرعون وملائه﴾ أي أرسلناه إلى فرعون ـ ملك مصر في زمن موسى ـ وقومه ﴿فظلموا بها﴾ أي كفروا وجحدوا بها ظلماً وعناداً ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي انظر أيها السامع ما آل إليه أمر المفسدين الظالمين كيف أغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه ، وهذا أبلغُ في النكال لأعداء الله ، وأشفى لقلوب أولياء الله ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسولٌ من ربِّ العالمين﴾ أي إني رسولٌ إليك من الخالق العظيم رب كل شيء وخالقه ومليكه ﴿حقيقٌ على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾ أي جديرٌ بي وحقٌ عليَّ أن لا أخبر عن الله إلا بما هو حقٌ وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه ﴿قد جئتكم بآيةٍ من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل﴾ أي جئتكم بحجة قاطعة من الله تشهد على صدقي فخلِّ واتركْ سبيل بني إسرائيل حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطنُ آبائهم[3] قال أبو حيان : ولما كان فرعون قد ادعى الربوبية فاتحه موسى بقوله ﴿إني رسولٌ من رب العالمين﴾ لينبهه على الوصف الذي ادعاه وأنه فيه مبطلٌ لا محقٌ ، ولما كان قوله ﴿حقيقٌ على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾ أردفها بما يدل على صحتها وهو قوله ﴿قد جئتكم بآية من ربكم﴾ ولما قرّر رسالته فرَّع عليها تبليغ الحكم وهو قوله ﴿فأرسلْ معي بني إسرائيل﴾[4] ﴿قال إن كنتَ جئتَ بآيةٍ فأت بها إن كنت من الصادقين﴾ أي

---

(١) الكشاف ٢/ ١٣٥. (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٣٩

(٣) قال المفسرون : كان سبب سكنى بني اسرائيل بمصر مع أن آباءهم كان بالأرض المقدسة أن الأسباط ـ أولاد يعقوب ـ جاءوا مصر إلى أخيهم يوسف فمكثوا وتناسلوا في مصر فلما ظهر فرعون استعبدهم واستعملهم في الأعمال الشاقة فأحبَّ موسى أن يخلصهم من هذا الأسر ويذهب بهم إلى الأرض المقدسة وطن آبائهم . (٤) البحر ٤/ ٣٥٥ .

هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو

قال فرعون لموسى : إن كنت جئت بآية من ربك كما تدّعي فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك في دعواك ، قال ذلك على سبيل التعجيز لموسى ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين﴾ أي فإذا بها حية ضخمة طويلة قال ابن عباس : تحولت إلى حية عظيمة فاغرة فاها مسرعةً نحو فرعون و ﴿مبين﴾ أي ظاهر لا متخيَّل ﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ أي أخرجها من جيبه فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً عجيباً يغلب نورها نور الشمس قال ابن عباس : كان ليده نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض ﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم﴾ أي قال الأشراف منهم وهم أصحاب مشورته إن هذا عالمٌ بالسحر ماهرٌ فيه ، وقولهم ﴿عليم﴾ أي بالغُ الغاية في علم السحر وخدعه وفنونه ﴿يريد أن يُخرجكم من أرضكم﴾ أي يخرجكم من أرض مصر بسحره ﴿فماذا تأمرون﴾ أي بأي شيء تأمرون أن نفعل في أمره ؟ وبأي شيء تشيرون فيه ؟ قال القرطبي : قال فرعون : فماذا تأمرون وقيل : هو من قول الملأ أي قالوا لفرعون وحده ﴿فماذا تأمرون﴾ كما يُخاطب الجبارون والرؤساء : ما ترون في كذا[1] ، ﴿قالوا أرجهْ وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين﴾ أي أخِّر أمرهما حتى ترى رأيك فيهما وأرسلْ في أنحاء البلاد من يجمع لك السحرة ﴿يأتوك بكل ساحرٍ عليم﴾ أي يأتوك بكل ساحرٍ مثله ماهر في السحر ، وكان رؤساء السحرة بأقصى صعيد مصر ﴿وجاء السحرة فرعون قالوا إنَّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ في الكلام محذوفٌ يدل عليه السياق وهو أنه بعث إلى السحرة وطلب أن يُجمعوا له فلما جاءوا فرعون قالوا : إنَّ لنا لأجراً عظيماً إن نحن غلبنا موسى وهزمناه وأبطلنا سحره ؟ ﴿قال نعم وإنكم لمن المقربين﴾ أي قال فرعون : نعم لكم الأجر وأزيدكم على ذلك بأن أجعلكم من المقربين أي من أعزّ خاصتي وأهل مشورتي قال القرطبي : زادهم على ما طلبوا ﴿قالوا يا موسى إمّا أن تُلقي وإماً أن نكون نحن الملقين﴾ أي قال السحرة لموسى : اختر إمّا أن تُلقي عصاك أو نلقي نحن عصيّنا قال الزمخشري : تخييرهم إيّاه أدبٌ حسن كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يخوضوا في الجدال[2] هذا ما قاله الزمخشري ، والأظهر أنهم قالوا ذلك من باب الاعتزاز بالنفس وتوهم الغلبة وعدم الاكتراث بأمر موسى كما يقول المعتد بنفسه : أبدأ أو تبدأ ﴿قال ألقُوا فلما ألقوْا سحروا أعين الناس﴾ أي قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقو العصيّ والحبال سحروا أعين الناس أي خيلوا إليهم ما لا حقيقة له كما قال تعالى ﴿يُخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ ﴿واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾ أي أفزعوهم

(١) القرطبي ٧/ ٢٥٧ . (٢) الكشاف ٢/ ١٤٠ .

﴿بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ * وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ﴾

وأرهبوهم إرهاباً شديداً حيث خيلوها حياتٍ تسعى وجاءوا بسحر عظيم يهابه من رآه قال ابن اسحق : صُفَّ خمسة عشر ألف ساحر مع كل ساحرٍ حبالُه وعصيُّه وفرعون في مجلسه مع أشراف مملكته فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد ثم ألقى رجل منهم ما في يده من العصيّ والحبال فإذا هي حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً[١] ﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاكَ فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ أي أوحينا إليه بأن ألق عصاك فألقاها فإذا هي تبتلع بسرعة ما يزوّرونه من الكذب قال ابن عباس : ﴿تلقف ما يأفكون﴾ لا تمر بشيء من حبالهم وخشبهم التي ألقوها إلا التقمته ﴿فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾ أي ثبت وظهر الحق لمن شهده وحضره ، وبطل إفك السحر وكذبه ومخايله ﴿فغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين﴾ أي غُلب فرعونُ وقومهُ في ذلك المجمع العظيم وصاروا ذليلين ﴿وألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين ربِّ موسى وهرون﴾ أي خرّوا ساجدين معلنين إيمانهم بربِّ العالمين لأن الحق بهرهم قال قتادة : كانوا أول النهار كفاراً سحرة وفي آخره شهداء بررة[٢] ﴿قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم﴾ أي قال فرعون الجبار للسحرة آمنتم بموسى قبل أن تستأذنوني ؟ والمقصود بالجملة التوبيخ ﴿إن هـذا لمكرٌ مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾ أي صنيعكم هذا حيلةٌ احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا إلى الميعاد لتخرجوا منها القبط وتسكنوا بني اسرائيل ، قال هذا تمويهاً على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان ﴿فسوف تعلمون﴾ أي فسوف تعلمون ما يحلُّ بكم ، وهذا وعيد وتهديد ساقه بطريق الإجمال للتهويل ثم عقّبه بالتفصيل فقال ﴿لأُقَطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أي لأقطعنَّ من كل واحد منكم يده ورجله من خلاف قال الطبري : ومعنى ﴿من خلاف﴾ هو أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى . أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى فيخالف بين العضوين في القطع[٣] ﴿ثم لأصلبنّكم أجمعين﴾ أي ثم أصلبكم جميعاً تنكيلاً لكم ولأمثالكم ، والصلب التعليق على الخشب حتى الموت ﴿قالوا إنا إلى ربنا منقلبون﴾ إنّا راجعون إلى الله بالموت لا محالة فلا نخاف مما تتوعدنا به ولا نبالي بالموت وحبذا الموت في سبيل الله ﴿وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا﴾ أي ما تكره منا ولا تعيب

(١) الطبري ١٣/ ٢٨ . (٢) البحر المحيط ٤/ ٣٦٤ (١) الطبري ١٣/ ٣٤ .

أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

علينا إلا إيماننا بالله وآياته !! كقوله ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤ منوا بالله العزيز الحميد﴾ قال الزمخشري : أرادوا وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها وهو الايمان[1] ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾ أي أفضْ علينا صبراً يغمرنا عند تعذيب فرعون إيانا وتوفنا على ملة الإسلام غير مفتونين ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويَذَرك وآلهتك﴾ أي قال الأشراف لفرعون : أتترك موسى وجماعته ليفسدوا في الأرض بالخروج عن دينك وترك عبادة آلهتك !! وفي هذا إغراءٌ لفرعون بموسى وقومه وتحريضٌ له على قتلهم وتعذيبهم﴿قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون﴾ أي قال فرعون مجيباً لهم : سنقتل أبناءهم الذكور ونستبقي نساءهم للاستخدام كما كنا نفعل بهم ذلك وإنّا عالون فوقهم بالقهر والسلطان ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا﴾ أي قال موسى لقومه تسليةً لهم حين تضجروا مما سمعوا : استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما ينالكم من أذاهم واصبروا على حكم الله ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده﴾ أي الأرض كلها لله يعطيها من أراد من عباده ، أطمعهم في أن يورثهم الله أرض مصر ﴿والعاقبة للمتقين﴾ أي النتيجة المحمودة لمن اتقى الله ﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ أي أوذينا من قبل أن تأتينا بالرسالة ومن بعدما جئتنا بها يعنون أن المحنة لم تفارقهم فهم في العذاب والبلاء قبل بعثة موسى وبعد بعثته ﴿قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ أي لعل ربكم أن يهلك فرعون وقومه ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم وينظر كيف تعملون بعد استخلافكم من الإصلاح والإفساد ، والغرضُ تحريضهم على طاعة الله ، وقد حقق الله رجاء موسى فأغرق فرعون وملّك بني إسرائيل أرض مصر قال في البحر : سلك موسى طريق الأدب مع الله وساق الكلام مساق الرجاء[2] .

البَـــلاَغَـــة : ١ ـ ﴿بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ بين لفظ الحسنة والسيئة طباقٌ وكذلك بين لفظ ﴿الضراء والسرّاء﴾ .

٢ ـ ﴿لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء﴾ شبّه تيسير البركات عليهم بفتح الأبواب في سهولة التناول

(١) الكشاف ٢/ ١٤٢ . (٢) البحر المحيط ٤/ ٣٦٩ .

فهو من باب الاستعارة أي وسعنا عليهم الخير من جميع الأطراف .

٣ - ﴿أفأمن أهل القرى﴾ تكررت الجملة والغرض منها الإنذار ويسمى هذا في علم البلاغة الإطناب ومثلها ﴿أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله﴾ قال ابو السعود : تكريرٌ للنكير لزيادة التقرير ، ومكرُ الله استعارةٌ لاستدراجه العبد وأخذه من حيث لا يحتسب[1] .

٤ - ﴿وإنكم لمن المقربين﴾ أكد الجملة بإن واللام لإزالة الشك من نفوس السحرة ويسمى هذا النوع من أضرب الخبر إنكارياً .

٥ - ﴿فوقع الحق﴾ فيه استعارة استعير الوقع للثبوت والحصول والله أعلم .

تنبيه : لما عجز فرعون عن دفع الحجة بالبرهان عدل إلى البطش والفتك بالسنان ، وهكذا حال كل ضال مبتدع إذا أعيته الحجة مال إلى التهديد والوعيد .

قول الله تعالى :﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات . إلى . . لنكونن من الخاسرين﴾ من آية (١٣٠) إلى نهاية آية (١٤٩) .

المناسبة : لما كانت قصة الكليم مع الطاغية فرعون مملوءة بالعبر والعظات لذلك استطردت الآيات في الحديث عنهم فتحدثت عمّا حلَّ بقوم فرعون من البلايا والنكبات ، وما ابتلاهم الله به من القحط والجدب ، والطوفان والجراد وغير ذلك من المصائب نتيجة إصرارهم على الكفر وتكذيبهم بآيات الله ، ثم ذكرت أنواع النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل ومن أعظمها إهلاك عدوهم وقطعهم البحر مع السلامة والأمان .

اللغة : ﴿السنين﴾ جمع سَنَة وهي الجدبُ والقحطُ ﴿يطّيروا﴾ يتشاءموا والأصل يتطيروا مأخوذٌ من الطِّيرة وهي زجر الطير ثم استعمل في التشاؤم ﴿الطوفان﴾ السيل المتلف المدمِّر ﴿القُمَّل﴾ السوس وهي حشرات صغيرة تكون في الحنطة وغيرها تفسد الحبوب ﴿الرجز﴾ العذاب ، والرجس بالسين : النجس وقد يستعمل بمعنى العذاب ﴿اليمُّ﴾ البحر ﴿يعكفون﴾ عكف على الشيء أقام عليه ولزمه ﴿متبَّر﴾ مهلكٌ والتبار : الهلاك ﴿صعقاً﴾ مغشياً عليه يقال : صَعِق الرجل إذا أُغمي عليه .

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا

التفسير : ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ اللام موطئة لقسم محذوف أي والله لقد ابتلينا واختبرنا فرعون وأتباعه بالجدب والقحط ﴿ونقص من الثمرات﴾ أي وابتليناهم بإذهاب الثمار من كثرة الآفات قال المفسرون: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة[2] ﴿لعلّهم يذكّرون﴾ أي لعلهم

(١) أبو السعود ٢/ ١٨٤ . (٢) الطبري ١٣/ ٤٦ .

هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ

يتعظون وترقَّ قلوبهم فإن الشدة تجلب الإنابة والخشية ورقة القلب ، ثم بيّن تعالى أنهم مع تلك المحن والشدائد لم يزدادوا إلا تمرداً وكفراً فقال ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه﴾ أي إذا جاءهم الخِصْب والرّخاء قالوا هذه لنا وبسعدنا ونحن مستحقون لذلك ﴿وإن تصبهم سيئةٌ يطيّروا بموسى ومن معه﴾ أي وإذا جاءهم الجدب والشدة تشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين أي قالوا : هذا بشؤمهم قال تعالى رداً عليهم ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ أي إن ما يصيبهم من خير أو شر بتقدير الله وليس بشؤم موسى قال ابن عباس : الأمر من قِبَل الله ليس شؤمهم إلاّ من قِبَله وحكمه[1] ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون أن ما لحقهم من القحط والشدائد من عند الله بسبب معاصيهم لا من عند موسى ﴿وقالوا مهما تأتنا به من آيةٍ لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ أي قال قوم فرعون لموسى :أي شيء تأتينا به يا موسى من المعجزات لتصرفنا عما نحن عليه فلن نؤمن لك قال الزمخشري : فإن قلت كيف سموها آية ثم قالوا ﴿لتسحرنا بها﴾ ؟ قلت : ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية وإنما قصدوا بذلك الاستهزاء والتلهي[2] قال تعالى ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ أي أرسلنا عليهم المطر الشديد حتى عاموا فيه وكادوا يهلكون قال ابن عباس : الطوفان كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار[3] ﴿والجراد﴾ أي وأرسلنا عليهم كذلك الجراد فأكل زروعهم وثمارهم حتى أكل ثيابهم ﴿والقُمَّل﴾ وهو السوس حتى نخر حبوبهم وتتّبع ما تركه الجراد وقيل : هو القمل المشهور كان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيمصه ﴿والضفادع﴾ جمع ضفدع حتى ملأت بيوتهم وطعامهم وإذا تكلم أحدهم وثبت الضفدع إلى فمه ﴿والدم﴾ أي صارت مياههم دماً فما يستقون من بئر ولا نهر إلا وجدوه دماً ﴿آياتٍ مفصّلاتٍ﴾ أي علامات ظاهرات فيها عبرٌ وعظاتٌ ومع ذلك استكبروا عن الإيمان ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي استكبروا عن الإيمان بها لغلوهم في الإجرام ﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾ أي وحين نزل بهم العذاب المذكور ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾ أي ادع لنا ربك ليكشف عنا البلاء بحق ما أكرمك به من النبوة قال الزمخشري : أي أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة[4] ﴿لئن كشفتَ عنا الرجزَ لنؤمننَّ لكَ ولنرسلنَّ معكَ بني إسرائيل﴾ اللام لام القسم أي والله لئن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه يا موسى لنصدقنَّ بما جئت به ولنطلقنَّ سراح بني إسرائيل ، وقد كانوا يستخدمونهم في أرذل الأعمال ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إلى أجلٍ هم بالغوه﴾

(١) روح المعاني ٩/ ٣٢ . (٢) الكشاف ٢/ ١٤٦ .
(٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٤٥ . (٤) الكشاف ٢/ ١٤٨ .

﴿قَالُوا يَٰمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَٰءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ الْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا الَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَٰءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَٰمُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا﴾

أي فلما كشفنا بدعاء موسى عنهم العذاب إلى حدٍّ من الزمان هم واصلون إليه ولا بدَّ قال ابن عباس : هو وقت الغَرَق ﴿إذا هـم ينكثـون﴾ أي إذا هم ينقضون عهودهم ويصرّون على الكفر ﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهـم في اليمّ﴾ أي فانتقمنا منهم بالإغراق في البحر ﴿بأنهم كذبـوا بآياتنا وكانـوا عنها غافليـن﴾ أي بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عنها وعدم مبالاتهم بها ﴿وأورثنـا القوم الذيـن كانوا يُسْتضعفونَ مشارق الأرض ومغاربهـا﴾ أي وأورثنا بني إسرائيل الذين كانوا يُستذلون بالخدمة أرض الشام وملّكناهم جميع جهاتها ونواحيها: مشارقها ومغاربها ﴿التي باركنا فيها﴾ بالخيرات وكثرة الثمرات ﴿وتمّت كلمةُ ربك الحُسْنـى على بني إسرائيل﴾ أي تمَّ وعد الله الصادق بالتمكين لبني إسرائيل في الأرض ونصره إياهم على عدوهم قال الطبري : وكلمتُه الحسنى هي قوله جل ثناؤه ﴿ونريـد أن نمُنَّ على الذيـن استضعفـوا في الأرض ونجعلهـم أئمة . .﴾[1] الآية ﴿بمـا صبـروا﴾ أي بسبب صبرهم على الأذى ﴿ودمّرنـا مـا كان يصنعُ فرعون وقومه وما كانـوا يعرشـون﴾ أي خرّبنا ودمّرنا القصور والعمارات التي كان يشيدها فرعون وجماعته وما كانوا يعرشون من الجنّات والمزارع ، وإلى هنا تنتهي قصة فرعون وقومه ويبتدىء الحديث عن بني إسرائيل وما أغدق الله عليهم من النعم الجسام ، وأراهم من الآيات العظام ، تسليةً لرسوله عليه الصلاة والسلام مما رآه منهم قال تعالى ﴿وجاوزنـا ببنـي إسرائيل البحـر﴾ أي عبرنا ببني إسرائيل البحر وهو بحر القُلْزم عند خليج السويس الآن ﴿فأتَوْا علـى قوم يعكفون علـى أصنامٍ لهـم﴾ أي مروا على قوم يلازمون على عبادة أصنام لهم ﴿قالوا يا موسـى اجعل لنـا إلهاً كمـا لهـم آلهة﴾ أي اجعل لنا صنماً نعبده كما لهم أصنام يعبدونها قال ابن عطية : الظاهر أنهم استحسنوا ما رأوا فأرادوا ان يكون ذلك في شرع موسى وفي جملة ما يُتقربُ به إلى الله وإلا فبعيدٌ أن يقولوا لموسى اجعل لنا إلهاً نُفرده بالعبادة[2] ﴿قال إنكم قومٌ تجهلـون﴾ اي إنكم قوم تجهلون عظمة الله وما يجب أن ينزّه عنه من الشريك والنظير قال الزمخشري : تعجّبَ من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى ، والمعجزة الكبرى فوصفهم بالجهل المطلق وأكّده ،

(١) الطبري ١٣/ ٧٧ . (٢) البحر ٤/ ٣٧٨ .

يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ

لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع[1] **﴿إنَّ هؤلاء مُتبَّرٌ ما هم فيه﴾** أي هالك مدمَّر ما هم فيه من الدين الباطل وهو عبادة الأصنام **﴿وباطلٌ ما كانوا يعملون﴾** أي باطل عملهم مضمحلٌ بالكلية لأنهم عبدوا ما لا يستحق العبادة **﴿قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضّلكم على العالمين﴾** أي أأطلب لكم معبوداً غير الله المستحق للعبادة والحال أنَّ الله فضَّلكم على غيركم بالنعم الجليلة ! ! قال الطبري : فضَّلكم على عالمي دهركم وزمانكم[2] **﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب﴾** أي واذكروا يا بني إسرائيل النعم التي سلفت مني إليكم حين أنجيتكم من قوم فرعون يذيقونكم أفظع أنواع العذاب وأسوأه ثم فسره بقوله **﴿يقتّلون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾** أي يذبحون الذكور ويستبقون الإناث لامتهانهن في الخدمة **﴿وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم﴾** أي وفي هذا العذاب اختبار وابتلاء من الله لكم عظيم فنجاكم منه أفلا تشكرونه ؟ **﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة﴾** أي وعدنا موسى لمناجاتنا بعد مضي ثلاثين ليلة وأكملناها بعشر ليالٍ فتمت المناجاة بعد أربعين ليلة قال الزمخشري : روى أن موسى وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيانُ ما يأتون وما يذرون . فلما هلك فرعونُ سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة فلما أتمَّ الثلاثين أنكر خلوف فمه « تغير رائحته » فتسوك فأوحى الله تعالى إليه : أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ! فأمره تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة[3] **﴿وقال موسى لأخيه هرون أخلفني في قومي﴾** أي كن خليفتي فيهم إلى أن أرجع **﴿وأصلحْ ولا تتبع سبيل المفسدين﴾** أي وأصلحْ أمرهم ولا تسلك طريق الذين يفسدون في الأرض بمعصيتهم لله **﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلَّمه ربُّه﴾** أي ولما جاء موسى للوقت الذي وعدناه فيه وناجاه ربه وكلمه من غير واسطة **﴿قال ربِّ أرني أنظر إليك﴾** أي أرني ذاتك المقدسة أنظر إليها قال القرطبي : اشتاق إلى رؤية ربه لمّا أسمعه كلامه فسأل النظر إليه[4] **﴿قال لن تراني ولكنْ انظرْ إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾** أي أجابه ربه لن تستطيع رؤيتي في الدنيا فإن هذه البنية البشرية لا طاقة لها بذلك ولكنْ سأتجلّى لما هو أقوى منك وهو الجبل فإن ثبت الجبل مكانه ولم يتزلزل فسوف تراني أي تثبت لرؤيتي وإلاّ فلا طاقة لك **﴿فلما تجلّى ربُّه للجبل جعله دكاً وخرَّ موسى صعقاً﴾**

---

(١) الكشاف ٢ (٢) الطبري ١٣/ ٨٤ . (٣) الكشاف ٢/ ١٥١ (٤) القرطبي ٧/ ٢٧٨

لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ

أي فلما ظهر من نور الله قدر نصف أنملة الخنصر اندك الجبل وتفتّت وسقط موسى مغشياً عليه من هول ما رأى قال ابن عباس : ما تجلّى منه سبحانه للجبل إلا قدر الخنصر فصار تراباً وخرَّ موسى مغشياً عليه[1] وفي الحديث : فساخ الجبل ﴿فلما أفاق قال سبحانك تبتُ إليك وأنا أول المؤمنين﴾ أي فلما صحا من غشيته قال تنزيهاً لك يا رب وتبرئة أن يراك أحدٌ في الدنيا تبتُ إليك من سؤالي رؤيتك في الدنيا وأنا أول المؤمنين بعظمتك وجلالك ﴿قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ أي اخترتك على أهل زمانك بالرسالة الإلهية وبتكليمي إياك بدون واسطة ﴿فخذ ما آتيتك﴾ أي خذ ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمه ﴿وكن من الشاكرين﴾ واشكر ربك على ما أعطاك من جلائل النعم قال أبو السعود : والآية مسوقة لتسليته عليه السلام من عدم الإجابة إلى سؤال الرؤية كأنه قيل : إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما لم أعط أحداً من العالمين فاغتنمها وثابرْ على شكرها[2] ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء﴾ أي كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام مبيّنة للحلال والحرام كلُّ ذلك في ألواح التوراة ﴿موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾ أي ليتعظوا بها ويزدجروا وتفصيلاً لكل التكاليف الشرعية ﴿فخذها بقوة﴾ أي خذ التوراة بجدٍّ واجتهادٍ شأن أولي العزم ﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ أي وأمر بني إسرائيل بالحث على اختيار الأفضل كالأخذ بالعزائم دون الرخص فالعفو أفضل من القصاص ، والصبر أفضل من الانتصار كما قال تعالى ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ قال ابن عباس : أُمر موسى أن يأخذها بأشدّ مما أمر به قومه[3] ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ أي سترون منازل الفاسقين ـ فرعون وقومه ـ كيف أقفرت منهم ودُمِّروا لفسقهم لتعتبروا فلا تكونوا مثلهم . فإن رؤيتها وهي خالية عن أهلها موجبة للاعتبار والانزجار ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ أي سأمنع المتكبرين عن فهم آياتي فلا يتفكرون) ولا يتدبرون بما فيها، وأطمس على قلوبهم عقوبةً لهم على تكبرهم قال الزمخشري : وفيه إنذار للمخاطبين من عاقبة الذين يُصرفون عن آيات الله لتكبرهم وكفرهم بها لئلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم[4] ﴿وإن يَرَوْا كلَّ آية

(١) الطبري ١٣/ ٩٧ . (٢) أبو السعود ٢/ ١٩٥ (٣) الطبري ١٣/ ١١٠ (٤) الكشاف ٢/ ١٥٩

ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

لا يؤمنوا بها﴾ أي وإن يشاهدوا كل آية قرآنية من الآيات المنزلة عليهم أو يرَوْا كل معجزة ربانية لا يصدقوا بها ﴿وإن يروا سبيل الرُّشْد لا يتخذوه سبيلاً﴾ أي وإن يروا طريق الهدى والفلاح لا يسلكوه ﴿وإن يروا سبيل الغيِّ يتخذوه سبيلاً﴾ أى وإن يروا طريق الضلال والفساد سلكوه كقوله ﴿فهديناهم فاستحبوا العمى على الهُدَى﴾ ﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا﴾ أي ذلك الانحراف عن هَدْي الله وشرعه بسبب تكذيبهم بآيات الله ﴿وكانوا عنها غافلين﴾ أي وغفلتهم عن الآيات التي بها سعادتهم حيث لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ أى جحدوا بما أنزل الله ﴿ولقاء الآخرة﴾ أى وكذبوا بلقاء الله في الآخرة أي لم يؤمنوا بالبعث بعد الموت ﴿حَبِطَتْ أعمالهم﴾ أي بطلت أعمالهم الخيرية التي عملوها في الدنيا من إحسانٍ وصلة رحم وصدقة وأمثالها وذهب ثوابها لعدم الايمان ﴿هل يجْزون إلا ما كانوا يعملون﴾ أي هل يُثابون أو يعاقبون إلا بما عملوا في الدنيا ؟ ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عجلاً جسداً له خوار﴾ قال الحافظ ابن كثير : يخبر تعالى عن ضلال من ضلَّ من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامريُّ من الحليّ ، فشكّل لهم منه عجلاً جسداً لا روح فيه وقد احتال بإدخال الريح فيه حتى صار يسمع له خُوار أي صوتٌ كصوت البقر[1] ومعنى ﴿من بعده﴾ أي من بعد ذهاب موسى إلى الطور لمناجاة ربه ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي كيف عبدوا العجل واتخذوه إلهاً مع أنه ليس فيه شيء من صفات الخالق الرازق ، فانه لا يملك قدرة الكلام ولا قدرة هدايتهم إلى سبيل السعادة فكيف يتخذ إلهاً ؟ ﴿اتخذوه وكانوا ظالمين﴾ أي عبدوا العجل واتخذوه إلهاً فكانوا ظالمين لأنفسهم حيث وضعوا الأشياء في غير موضعها . وتكرير لفظ ﴿اتخذوا﴾ لمزيد التشنيع عليهم ﴿ولما سُقط في أيديهم﴾ أي ندموا على جنايتهم واشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ أي تبينوا ضلالهم تبيناً جلياً كأنهم أبصروه بعيونهم ﴿قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا﴾ أي لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته ﴿لنكوننَّ من الخاسرين﴾ أي لنكوننَّ من الهالكين قال ابن كثير : وهذا اعترافٌ منهم بذنبهم والتجاءٌ إلى الله عز وجل[2] .

البَلاَغَة : ١ - ﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ بين لفظ الحسنة والسيئة طباقٌ كما أن بين لفظ ﴿طائرهم﴾

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٥١ (٢) المختصر ٢/ ٥١

و ﴿يطيروا﴾ جناس الاشتقاق وكلاهما من المحسنات البديعية .

٢ ـ ﴿ودمرنا ما كان يصنع﴾ عدل عن الماضي إلى المضارع لاستحضار الصورة في ذهن المخاطب ومثله ﴿وما كانوا يعرشون﴾ والأصل ما صنعوا وما عرشوا .

٣ ـ ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ أتى بلفظ تجهلون ولم يقل : جهلتم إشعاراً بأن ذلك منهم كالطبع والغريزة لا ينتقلون عنه في ماضٍ ولا مستقبل [١] .

٤ ـ ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في الحض على نهج سبيل الصالحين ، والأصل أن يقال : سأريهم .

٥ ـ ﴿ولما سقط في أيديهم﴾ هذا من باب الكناية فهو كناية عن شدة الندم لأن النادم يعض على يده غماً .

٦ ـ بين لفظ ﴿مشارق﴾ و﴿مغارب﴾ طباقٌ .

تنبيه : مذهب أهل السنة قاطبة على أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة وأنكرت المعتزلة ذلك واستدلوا بالآية الكريمة ﴿لن تراني﴾ وليس لهم في هذه الآية متمسك بل هي دليلٌ لأهل السنة والجماعة على إمكان الرؤية ، لأنها لو كانت مُحالاً لم يسألها موسى فإن الأنبياء عليهم السلام يعلمون ما يجوز على الله وما يستحيل ، ولو كانت الرؤية مستحيلة لكان في الجواب زجرٌ وإغلاظ كما قال تعالى لنوح ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علمٌ إني أعظكَ أن تكون من الجاهلين﴾ فهذا المنع من رؤية الله إنما هو في الدنيا لضعف البنية البشرية عن ذلك قال مجاهد : إن الله قال لموسى : لن تراني ، لأنك لا تطيق ذلك ولكن سأتجلى للجبل الذي هو أقوى منك وأشد ، فإن استقر وأطاق الصبر لهيبتي أمكن أن تراني أنت ، وإن لم يُطق الجبل فأحرى ألاّ تطيق أنت فعلى هذا جعل الله الجبل مثالاً لموسى ولم يجعل الرؤية مستحيلة على الإطلاق ، وقد صرح بوقوع الرؤية في الآخرة كتابُ الله ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ فلا ينكرها إلا مبتدع .

فائدة : لما سمع الكليم موسى كلام الله اشتاق إلى رؤيته ، لأن التلذذ بسماع كلام الحبيب يزيد في الشوق إليه والحنين وقد أحسن من قال :

وأفرحُ ما يكونُ الشوقُ يوماً إذا دنتِ الدّيارُ من الديار

لطيفة : السعادة والشقاوة بيد الله فموسى بن عمران ربّاه فرعون فكان مؤمناً ، وموسى السامري ربّاه جبريل وكان كافراً ، فلم تنفع تربية الأمين لموسى السامري ، ولم تضر تربية اللعين لموسى الكليم عليه السلام ، وقد أنشد بعضهم في هذا المعنى :

إذا المرءُ لم يُخْلَقْ سعيداً من الأزَل فقدْ خابَ من ربَّى وخابَ المُؤَمِّلُ
فموسَى الّذي ربّاهُ جبريلُ كافرٌ وموسَى الذي ربّاه فِرْعونُ مُرْسَلُ

قال الله تعالى : ﴿ولما رجع موسى إلى قومه. . إلى . . إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾
من آية (١٥٠) إلى نهاية آية (١٧٠) .

---

(١) أفاده صاحب البحر ٤/ ٣٧٨ .

المناسبة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل ، وما أغدق الله عليهم من النعم . وما قابلوها به من الجحود والعصيان . وقد ذكرت الآيات قصة ﴿أصحاب القرية﴾ واعتداءهم يوم السبت بالاصطياد فيه وكيف أن الله تعالى مسخهم قردة ، وفي ذلك عبرةٌ للمعتبرين .

اللغة : ﴿أسفاً﴾ الأسف : شدة الحزن أو الغضب يقال هو أسِفٌ وأسيف ﴿ابنَ أمَّ﴾ أصلها ابن أمي وهي استعطاف ولين ﴿تشمت﴾ الشماتة : السرور بما يصيب الإنسان من مكروه وفي الحديث (وأعوذ بك من شماتة الأعداء) ﴿الرجفة﴾ الزلزلة الشديدة ﴿هدنا﴾ تبنا يقال : هاد يهود إذا تاب ورجع فهو هائد قال الشاعر : إني امرؤٌ مما جنيتُ هائد ﴿إصرهم﴾ التكاليف الشاقة وأصل الإصر الثقل الذي يأصر صاحبه عن الحِرَاك ﴿الأغلال﴾ جمع غُل وهو ما يوضع في العنق أو اليد من الحديد ﴿عزّروه﴾ وقّروه ونصروه ﴿أسباطاً﴾ جمع سبط وهو ولد الولد أو ولد البنت ثم أطلق على كل قبيلة من بني إسرائيل ﴿تأذّنَ﴾ آذن من الإيذان بمعنى الإعلام ﴿يسومهم﴾ يذيقهم ﴿خَلْف﴾ بسكون اللام من يخلف غيره بالسوء والشر وأمّا بفتح اللام فهو من يخلف غيره بالخير ومنه قولهم : « جعلك الله خير خلف لخير سلف » .

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

التفسير : ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً﴾ أي ولما رجع موسى من المناجاة ﴿غضبان﴾ مما فعلوه من عبادة العجل ﴿أسفاً﴾ أي شديد الحزن ﴿قال بئسما خلفتموني من بعدي﴾ أي بئس ما فعلتموه بعد غيبتي حيث عبدتم العجل ﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ أي أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حتى يرجع من الطور ؟ والاستفهام للإنكار ﴿وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه﴾ أي طرح الألواح لما عراه من شدة الغضب . وفرط الضجر غضباً لله من عبادة العجل . وأخذ بشعر رأس أخيه هارون يجره إليه ظناً منه أنه قصّر في كفهم عن ذلك وكان عليه السلام شديد الغضب لله سبحانه قال ابن عباس : لمّا عاين قومه وقد عكفوا على العجل ألقى الألواح فكسرها غضباً لله وأخذ برأس أخيه يجره إليه[1] ﴿قال ابنَ أمَّ إنَّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني﴾ أي قال هارون يا ابن أمي - وهو نداء استعطاف وترفق[2] - إن القوم استذلوني وقهروني وقاربوا قتلي حين نهيتهم عن ذلك فأنا لم أقصّر في نصحهم ﴿فلا تشمتْ بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ أي لا تُسيءْ إليَّ حتى يُسرَّ الأعداء بي ويشمتوا بإهانتك إليَّ ولا تجعلني في عداد الظالمين بالمؤاخذة أو النسبة إلى التقصير قال مجاهد : ﴿الظالمين﴾ أي الذين عبدوا العجل ﴿قال ربِّ اغفر

(١) الطبري ١٣/١٢٣ (٢) قال ابن كثير : وإنما قال « ابنَ أمَّ » ليكون أرق وأنجع عنده وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه .

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ

لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾ لما تحقق لموسى براءة ساحة هارون عليه السلام من التقصير طلب عند ذلك المغفرة له ولأخيه فقال ﴿اغفر لي ولأخي﴾ الآية قال الزمخشري : استغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ، ولأخيه مما عسى أن يكون فرط منه في حين الخلافة ، وطلب ألاّ يتفرقا عن رحمته ، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة[١] ﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضبٌ من ربهم وذلةٌ في الحياة الدنيا﴾ أي إن الذين عبدوا العجل ـ ذكر البقر ـ واتخذوه إلهاً سيصيبهم غضب شديد من الرحمن ، وينالهم في الدنيا الذل والهوان قال ابن كثير : أما الغضب الذي نال بني إسرائيل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتلَ بعضُهم بعضاً ، وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصَغَاراً في الحياة الدنيا[٢] ﴿وكذلك نجزي المفترين﴾ أي كما جازينا هؤلاء بإحلال الغضب والإذلال كذلك نجزي كل من افترى الكذب على الله قال سفيان بن عُيينة : كلُّ صاحب بدعة ذليل[٣] ﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا﴾ أي عملوا القبائح والمعاصي ثم تابوا ورجعوا إلى الله من بعد اقترافها وداموا على إيمانهم وأخلصوا فيه ﴿إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيم﴾ أي إنَّ ربك يا محمد من بعد تلك التوبة لغفور لذنوبهم رحيم بهم قال الألوسي : وفي الآية إعلامٌ بأنَّ الذنوب وإن جلّتْ وعظمت فإن عفو الله تعالى وكرمه أعظم وأجلُّ . وما ألطف قول أبي نواس غفر الله تعالى له :

يا ربِّ إنْ عَظُمَتْ ذنوبي كثرةً ... فلقد علمتُ بأنَّ عفوكَ أعظمُ
إن كانَ لا يَرْجوكَ إلا محسنٌ ... فبمنْ يلوذُ ويستجيرُ المجرمُ ؟[٤]

﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ أي سكن غضب موسى على أخيه وقومه ﴿أخذ الألواح﴾ أي ألواح التوراة التي كان ألقاها ﴿وفي نسختها هدى ورحمة﴾ أي وفيما نُسخ فيها وكُتب هداية للحق ورحمة للخلق بإرشادهم إلى ما فيه سعادة الدارين ﴿للذين هم لربهم يرهبون﴾ أي هذه الرحمة للذين يخافون الله ويخشون عقابه على معاصيه ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ أي اختار موسى من قومه سبعين رجلاً ممن لم يعبدوا العجل للوقت الذي وعده ربه الإتيان فيه للاعتذار عن عبادة العجل ﴿فلما أخذتهم الرجفة﴾ أي فلما رجف بهم الجبل وصعقوا ﴿قال ربِّ لو شئتَ أهلكتَهم من قبلُ وإياي﴾ أي قال موسى على وجه التضرع والإستسلام

(١) الكشاف ٢/١٦٢ . (٢) المختصر ٢/ ٥٢ . (٣) الطبري ١٣/ ١٣٦ . (٤) روح المعاني ٩/ ٧٠ .

﴿ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ﴾

لأمر الله : لو شئت يا ربّ أن تهلكنا قبل ذلك لفعلتَ فإنّا عبيدك وتحت قهرك وأنت تفعل ما تشاء **﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾** ؟ أي أتهلكنا وسائر بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء السبعون في قولهم : **﴿أرنا الله جهرة﴾** ؟ والاستفهام استفهام استعطاف وتذلل فكأنه يقول : لا تعذبنا يا الله بذنوب غيرنا قال الطبري في رواية السدي : إن الله أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل . ووعدهم موعداً فاختار موسى من قومه سبعين رجلا على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا : لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته فأرناه فأخذتهم الصاعقة فماتوا . فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول : رب ماذا أقول لبني اسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكتَ خيارهم لو شئت أهلكتَهم من قبل وإياي[1] » أقول : إذا كان هذا قول الأخيار من بني اسرائيل فكيف حال الأشرار منهم ؟ نعوذ بالله من خبث اليهود **﴿إن هي إلا فتنتُك﴾** أي ما هذه الفتنة التي حدثت لهم إلا محنتك وابتلاؤك تمتحن بها عبادك **﴿تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾** أي تضل بهذه المحنة من تشاء إضلاله وتهدى من تشاء هدايته **﴿أنت ولِيُّنا فاغفر لنا وارحمنا﴾** أى أنت يا رب متولي أمورنا وناصرنا وحافظنا فاغفر لنا ما قارفناه من المعاصي وارحمنا برحمتك الواسعة الشاملة **﴿وأنت خير الغافرين﴾** أي أنت خير من صفح وستر . تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة **﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنةً وفى الآخرة﴾** هذا من جملة دعاء موسى عليه السلام أي حقّقْ وأثبتْ لنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة **﴿إنّا هدنا إليك﴾** أي تبنا ورجعنا إليك من جميع ذنوبنا **﴿قال عذابي أصيبُ به من أشاء ورحمتي وسعتْ كل شيء﴾** أي قال تعالى أما عذابى فأصيب به من أشاء من عبادى وأما رحمتى فقد عمّتْ خلقي كلهم قال أبو السعود : وفي نسبة الاصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذانٌ بأن الرحمة مقتضى الذات . وأما العذاب فبمقتضى معاصي العباد[2] **﴿فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾** أي سأجعل هذه الرحمة خاصة في الآخرة بالذين يتقون الكفر والمعاصي ويعطون زكاة أموالهم ويصدّقون بجميع الكتب والأنبياء **﴿الذين يتبعون الرسول النبيَّ الأميَّ﴾** أي هؤلاء الذين تنالهم الرحمة هم الذين يتبعون محمداًﷺ النبيَّ العربي الأمي أي الذي لا يقرأ ولا يكتب قال البيضاوي : وإنما سمّاه رسولاً بالإضافة إلى الله تعالى ، ونبياً بالإضافة إلى العباد[3] **﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة**

(١) الطبري ١٣/ ١٤٠ . (٢) أبو السعود ٢/ ٢٠١ . (٣) البيضاوى ص ٢

عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب

والإنجيل﴾ أي الذي يجدون نعته وصفته في التوراة والإنجيل قال ابن كثير: هذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعثته وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم[1] **﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾** أي لا يأمر إلا بكل شيء مستحسن ولا ينهى إلا عن كل شيء قبيح **﴿ويُحِل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث﴾** أي يحل لهم ما حرّم عليهم من الأشياء الطيبة بشؤم ظلمهم ويحرّم عليهم ما يستخبث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير **﴿ويضع عنهم إصرهُمْ والأغلالَ التي كانت عليهم﴾** أي يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة التي تشبه الأغلال كقتل النفس في التوبة وقطع موضع النجاسة من الثوب والقصاص من القاتل عمداً كان القتل أو خطأً وشبه ذلك **﴿فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه﴾** أي فالذين صدقوا بمحمد وعظّموه ووقّروه ونصروا دينه **﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾** أي واتبعوا قرآنه المنير وشرعه المجيد **﴿أولئك هم المفلحون﴾** أي هم الفائزون بالسعادة السرمدية **﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾** هذا بيان لعموم رسالته ﷺ لجميع الخلق أي قل يا محمد للناس إني رسولٌ من عند الله إلى جميع أهل الأرض **﴿الذي له ملكُ السموات والأرض﴾** أي المالك لجميع الكائنات **﴿لا إله إلا هو يحيي ويميت﴾** أي لا ربٌ ولا معبود سواه فهو الإله القادر على الإحياء والإفناء **﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾** أي صدّقوا بآيات الله وصدقوا برسوله المبعوث إلى جميع خلقه **﴿النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته﴾** أي آمنوا بالنبي الأمي صاحب المعجزات الذي لا يقرأ ولا يكتب المصدق بالكتب التي أنزلها الله عليه وعلى غيره من الأنبياء **﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾** أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره رجاء اهتدائكم إلى المطلوب **﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق﴾** أي ومن بني اسرائيل جماعة مستقيمون على شريعة الله يهدون الناس بكلمة الحق لا يجورون قال الزمخشري: لما ذكر تعالى الذين تزلزلوا منهم في الدين وارتابوا حتى أقدموا على العظيمتين: عبادة العجل، وطلب رؤية الله، ذكر أن منهم أمة موقنين ثابتين يهدون الناس بكلمة الحق ويدلونهم ويرشدونهم على الاستقامة[2] **﴿وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً﴾** أي وفرقنا بني اسرائيل فجعلناهم قبائل شتّى اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً من أولاد يعقوب

---

(١) المختصر ٢/ ٥٥ . (٢) الكشاف ٢/ ١٦٧ .

بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ

قال أبو حيان : أي فرقناهم وميّزناهم أسباطاً ليرجع أمر كل سبط أي « قبيلة » إلى رئيسه ليخفّ أمرهم على موسى ولئلا يتحاسدوا فيقع الهرج ، ولهذا فجّر لهم اثنتي عشرة عيناً لئلا يتنازعوا ويقتتلوا على الماء . وجعل لكل سبطٍ نقيباً ليرجعوا في أمورهم إليه[1] ﴿وأوحينا إلى موسى إذِ استسقاه قومه﴾ أي حين استولى عليهم العطش في التيه ﴿أن اضرب بعصاك الحجر﴾ أي أوحينا إليه أن يضرب الحجر بعصاه فضربه ﴿فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً﴾ أي انفجرت من الحجر اثنتا عشرة عيناً من الماء بعدد الأسباط ﴿قد علم كلُّ أناسٍ مشربهم﴾ أي قد عرف كل سبطٍ وجماعة منهم عينهم الخاصة بهم قال الطبري : لا يدخل سبطٌ على غيره في شربه[2] ﴿وظللنا عليهم الغمام﴾ أي جعلنا الغمام يكنّهم من حر الشمس ويقيهم من أذاها قال الألوسي : وكان الظلُّ يسير بسيرهم ويسكن بإقامتهم ﴿وأنزلنا عليهم المنَّ والسلوى﴾ أي وأكرمناهم بطعام شهي هو ﴿المنُّ﴾ وهي شيء حلوٌ ينزل على الشجر يجمعونه ويأكلونه و ﴿السلوى﴾ وهو طائر لذيذ اللحم يسمى السُّماني ،كلٌّ ذلك من إفضال الله وإنعامه عليهم دون جهدٍ منهم ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي وقلنا لهم كلوا من هذا الشيء الطيب اللذيذ الذي رزقناكم إياه ﴿وما ظلمونا ولكنْ كانوا أنفسهم يظلمون﴾ في الكلام محذوف تقديره : فكفروا بهذه النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك ولكن ظلموا أنفسهم حيث عرّضوها بالكفر لعذاب الله ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم﴾ أي واذكر لهم حين قلنا لأسلافهم اسكنوا بيت المقدس وكلوا من مطاعمها وثمارها من أى جهة ومن أى مكان شئتم منها ﴿وقولوا حطة﴾ أي وقولوا حين دخولكم : يا ألله حُطَّ عنا ذنوبنا ﴿نغفر لكم خطيئاتكم﴾ أي نمح عنكم جميع الذنوب التي سلفت منكم ﴿سنزيد المحسنين﴾ أي وسنزيد من أحسن عمله بامتثال أمر الله وطاعته فوقَ الغفران دخولَ الجنان ﴿فبدَّل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم﴾ أي غيَّر الظالمون منهم أمر الله بقولهم كلاماً لا يليق حيث قالوا بدل ﴿حطة﴾ حنطة في شعيرة وبدل أن يدخلوا ساجدين خشوعاً لله دخلوا يزحفون على أستاههم «وأدبارهم» سخرية واستهزاء بأوامر الله ﴿فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون﴾ أي فأرسلنا عليهم عذاباً من السماء بسبب ظلمهم وعدوانهم المستمر سابقاً ولاحقاً قال أبو السعود : والمراد

(١) البحر المحيط ٤/٤٠٦ . (٢) الطبري ١٣/١٧٧ . (٣) روح المعاني ٩/٨٨ .

﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن

بالعذاب « الطاعون » روي أنه مات منهم في ساعة واحدة أربعةٌ وعشرون ألفاً[1] ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾ أي واسأل يا محمد اليهود عن أخبار أسلافهم وعن أمر القرية التي كانت بقرب البحر وعلى شاطئه ماذا حلَّ بهم لما عصوا أمر الله واصطادوا يوم السبت ؟ ألم يمسخهم الله قردة وخنازير ؟ قال ابن كثير : وهذه القرية هي (أيلة) وهي على شاطىء بحر القلزم[2] ﴿إذ يَعْدون في السبت﴾ أي يتجاوزون حدّ الله فيه وهو اصطيادهم يوم السبت ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً﴾ أي حين كانت الحيتان « الأسماك » تأتيهم يوم السبت - وقد حُرّم عليهم الصيدُ فيه - كثيرةً ظاهرةً على وجه الماء ﴿ويوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾ أي وفي غير يوم السبت وهي سائر الأيام لا تأتيهم بل تغيب عنهم وتختفي ﴿كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾ أي مثل ذلك البلاء العجيب نختبرهم ونمتحنهم بإظهار السمك لهم على وجه الماء في اليوم المحرّم عليهم صيده وإخفائها عنهم في اليوم الحلال بسبب فسقهم وانتهاكهم حرمات الله قال القرطبي : روي أنها كانت في زمن داود عليه السلام وأن إبليس أوحى إليهم فقال: إنما نُهيتُم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا الحياض فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء فيأخذونها يوم الأحد ويحتالون في صيدها[3] ﴿وإذ قالتْ أمةٌ منهم لم تعظونَ قوماً اللهُ مهلكُهم أو معذبُهم عذاباً شديداً﴾ قال ابن كثير : يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحظور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت ، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم ، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾ أي لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكم إياهم[4] ؟ ﴿قالوا معذرة إلى ربكم﴾ أي قال الناهون : إنما نعظهم لنعذر عند الله بقيامنا بواجب النصح والتذكير ﴿ولعلهم يتقون﴾ أي ينزعون عمّا هم فيه من الإجرام قال الطبري : أي لعلهم أن يتقوا الله فينيبوا إلى طاعته ويتوبوا من معصيتهم إيّاه وتعدّيهم الاعتداء في السبت[5] ﴿فلما نسوا ما ذُكّروا به﴾ أي فلما تركوا ما ذكّرهم به صلحاؤهم ترك الناسي للشيء وأعرضوا عن قبول النصيحة إعراضاً كلياً ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ أي نجينا الناهين عن الفساد في الأرض ﴿وأخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بئيس﴾ أي وأخذنا الظالمين العصاة بعذابٍ شديد وهم الذين ارتكبوا المنكر ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي بسبب فسقهم وعصيانهم لأمر الله ﴿فلما

(١) أبو السعود ٢/ ٢٠٥ . (٢) المختصر ٢/ ٥٨ . (٣) القرطبي ٧/ ٣٠٦ . (٤) المختصر ٢/ ٥٩ . (٥) الطبري ١٣/ ١٨٥ .

يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ

عَتَوْا عمّا نُهوا عنه﴾ أي فلما استعصوا وتكبروا عن ترك ما نهوا عنه ﴿قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ أي مسخناهم إلى قردة وخنازير ؛ والمعنى أنهم عُذبوا أولاً بعذاب شديد فلما لم يرتدعوا وتمادوا في الطغيان مسخوا قردة وخنازير ، والحاصل أن أصحاب القرية انقسموا ثلاث فرق : فرقةٌ عصتْ فحلَّ بها العذاب ، وفرقة نهت ووعظت فنجاها الله من العذاب ، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تُقارف المعصية وقد سكت عنها القرآن قال ابن عباس : ما أدري ما فعل بالفرقة الساكتة أنجوا أم هلكوا ؟ قال عكرمة : فلم أزل به حتى عرّفته أنهم قد نجوا لأنهم كرهوا ما فعله أولئك ، فكساني حلة[1] ﴿وإذ تأذّن ربك ليبعثنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ أي واذكر يا محمد حين أعلم ربك ليسلطنَّ على اليهود إلى قيام الساعة من يذيقهم أسوأ العذاب بسبب عصيانهم ومخالفتهم أمر الله واحتيالهم على المحارم ، وقد سلّط الله عليهم بختنصّر فقتلهم وسباهم . وسلّط عليهم النصارى فأذلوهم وضربوا عليهم الجزية ، وسلّط عليهم محمداً ﷺ فطهّر الأرض من رجسهم وأجلاهم عن الجزيرة العربية ، وسلّط عليهم أخيراً « هتلر » فاستباح حماهم وكاد أن يبيدهم ويفنيهم بالقتل والتشريد في الأرض ، ولا يزال وعد الله بتسليط العذاب عليهم سارياً إلى أن يقتلهم المسلمون في المعركة الفاصلة إن شاء الله ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴿إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفورٌ رحيم﴾ أي سريع العقاب لمن عصاه وغفورٌ رحيم لمن أطاعه ﴿وقطّعناهم في الأرض أمماً﴾ أي فرّقناهم في البلاد طوائف وفرقاً ففي كل بلدة فرقة منهم ، وليس لهم إقليم يملكونه حتى لا تكون لهم شوكة ،وما اجتمعوا في الأرض المقدسة في هذه الأيام إلا ليذبحوا بأيدي المؤمنين إن شاءالله كما وعد بذلك رسول الله ﷺ حيث قال : (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود . .) الحديث اخرجه مسلم ثم بيّن تعالى أنهم ليسوا جميعاً فجاراً بل فيهم الأخيار وفيهم الأشرار فقال ﴿منهم الصالحون ومنهم دون ذلك﴾ أي منهم من آمن وهم قلة قليلة ومنهم من انحطَّ عن درجة الصلاح بالكفر والفسوق وهم الكثرة الغالبة ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ أي اختبرناهم بالنعم والنقم والشدة والرخاء لعلهم يرجعون عن الكفر والمعاصي ﴿فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب﴾ قال ابن كثير : أي خلف من بعد ذلك الجيل الذي فيهم الصالح والطالح خلْفٌ آخر لا خير فيهم ورثوا الكتاب وهو التوراة عن آبائهم[2] ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيُغفر لنا﴾ أي يأخذون ذلك الشيء الدنيء من حطام الدنيا من حلال وحرام ويقولون متبجحين : سيغفر الله لنا ما فعلناه ، وهذا اغترار منهم وكذب على الله ﴿وإن يأتهم عرضٌ مثله يأخذوه﴾ أي يرجون المغفرة وهم مصرّون على الذنب كلما لاح لهم شيء من حطام الدنيا

(١) المختصر ٢/ ٥٩ . (٢) المختصر ٢/ ٦١ .

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

أخذوه لا يُبالون من حلالٍ كان أو حرام ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي ألم يؤخذ عليهم العهد المؤكد في التوراة أن يقولوا الحق ولا يكذبوا على الله ؟ فكيف يزعمون أنه سيغفر لهم مع إصرارهم على المعاصي وأكل الحرام ؟ ﴿ودرسوا ما فيه﴾ في هذا أعظم التوبيخ لهم أي والحال أنهم درسوا ما في الكتاب وعرفوا ما فيه المعرفة التامة من الوعيد على قول الباطل والافتراء على الله ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون﴾ أي والآخرة خير للذين يتقون الله بترك الحرام ﴿أفلا تعقلون﴾ ؟ الاستفهام للإنكار أي أفلا ينزجرون ويعقلون ؟ والمراد أنهم لو كانوا عقلاء لما آثروا الفانية على الباقية ﴿والذين يُمَسِّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة﴾ أي يتمسكون في أمور دينهم بما أنزله الله ويحافظون على أداء الصلاة في أوقاتها ﴿إنّا لا نضيع أجر المصلحين﴾ أي لا نضيع أجرهم بل نجزيهم على تمسكهم وصلاحهم أفضل وأكرم الجزاء .

البَلَاغَة : ١ ـ ﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ شبّه الغضب بإنسان يرعد ويزبد ويزمجر بصوته آمراً بالانتقام ثم اختفى هذا الصوت وسكت ، ففي الكلام « استعارة مكنية » ويا له من تصوير لطيف يستشعر جماله كل ذي طبع سليم وذوقٍ صحيح .

٢ ـ بين لفظ « تضل » و « تهدي » طباقٌ وكذلك بين لفظ « يحيي » و « يميت » .

٣ ـ ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة ، وهي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابلها على الترتيب .

٤ ـ ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال﴾ استعار الإصر والأغلال للأحكام والتكاليف الشاقة .

٥ ـ ﴿أفلا تعقلون﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والتأنيب .

فَائِدَة : الخَلَف بفتح اللام من يخلف غيره بالخير ، والخَلْف بسكون اللام من يخلف غيره في الشر ومنه قوله تعالى ﴿فخلف من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾ وهذه الآية ﴿فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب﴾ والله أعلم .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة .. إلى .. ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ من آية (١٧١) إلى نهاية آية (١٨٦) .

المنَاسَبَة : لما حكى تعالى عن بني إسرائيل عصيانهم وتمردهم على أوامر الله ، حكى هنا ما عاقبهم به من اقتلاع جبل الطور وسحقهم به إن لم يعملوا بأحكام التوراة ، ثم ذكر تعالى مثلاً لعلماء السّوْء في قصة الذي انسلخ عن آيات الله طمعاً في حطام الدنيا وضرب له مثلاً بالكلب اللاهث في حالتيْ التعب والراحة ، وكفى به تصويراً لنفسية اليهود في تكالبهم على الدنيا وعبادتهم للمال .

اللغَة : ﴿نتقنا﴾ النتق : الجذب بقوة قال أبو عبيدة : أصل النتق قلعُ الشيء من موضعه والرميُ به[1] ﴿ظلة﴾ الظلةُ : كل ما أظلّك من سقفٍ أو سحابةٍ أو جناح حائط والجمع ظُلَلٌ وظِلالٌ ﴿وظنوا﴾ علموا أو أيقنوا ﴿انسلخ﴾ الانسلاخُ : الخروجُ يقال لكل من فارق شيئاً بالكلية انسلخ منه وانسلخت الحية من جلدها أي خرجت منه ﴿أخلد﴾ مال الى الشيء وركن إليه وأصله اللزوم يقال أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به ومنه الخلود في الجنة ﴿يَلْهث﴾ قال الجوهري : لَهَثَ الكلبُ يَلْهَثُ إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش[2] ﴿ذرأنا﴾ خلقنا ﴿يُلحدون﴾ الإلحاد : الميلُ عن القصد والاستقامة يقال : ألحد في الدين ولحد فهو ملحد لانحرافه عن تعاليم الدين .

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ

التفسِير : ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ أي اذكر حين اقتلعنا جبل الطور ورفعناه فوق رءوس بني إسرائيل ﴿كأنه ظُلّة﴾ أي كأنه سقيفة أو ظلة غمام ﴿وظنوا أنه واقع بهم﴾ أي أيقنوا أنه ساقط عليهم إن لم يمتثلوا الأمر قال المفسرون : رويَ أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها فرفع الله الطور على رءوسهم وقيل لهم : إن قبلتموها بما فيها وإلاّ ليقعنَّ عليكم فلما نظروا إلى الجبل خرَّ كل واحد منهم ساجداً خوفاً من سقوطه ثم قال تعالى ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي وقلنا لهم خذوا التوراة بجد وعزيمة ﴿واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ أي اذكروا ما فيه بالعمل واعملوا بهلتكونوا في سلك المتقين ﴿وإذْ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ قال الطبري : أي واذكر يا محمد إذْ استخرج ربك أولاد آدم من أصلاب آبائهم فقرّرهم بتوحيده وأشهد بعضَهم على بعض بذلك[3] قال ابن عباس : مسح الله ظهر آدم فاستخرج منه كلَّ نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة . ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ أي

---

(١) الرازي ٤/ ٤٥٧ . (٢) الصحاح مادة لهث .

(٣) للمفسرين في هذه الآية قولان : أحدهما أن الله لما خلق آدم أخرج ذريته من صلبه وهم مثل الذر وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم فأقروا وشهدوا بذلك وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ من طرق كثيرة وقال به جماعة من الصحابة والثاني : أن هذا من باب التمثيل والتخييل والمعنى أنه سبحانه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقال لهم ألست بربكم فقالوا بلى وهذا الرأي اختاره الزمخشري وأبو حيان وأبو السعود والأول أصح .

وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

وقرّرهم على ربوبيته ووحدانيته فأقروا بذلك والتزموه ﴿أنْ تقولوا يوم القيامة إنّا كنا عن هذا غافلين﴾ أي لئلا تقولوا يوم الحساب إنا كنا عن هذا الميثاق والإقرار بالربوبية غافلين لم ننبه عليه ﴿أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم﴾ أي ولكيلا تقولوا يوم القيامة أيضاً نحن ما أشركنا وإنما قلدنا آباءنا واتبعنا منهاجهم فنحن معذورون ﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ أي أفتهلكنا بإشراك من أشرك من آبائنا المضلّين بعد اتباعنا منهاجهم على جهل منا بالحق ؟ ﴿وكذلك نفصّل الآيات ولعلهم يرجعون﴾ أي وكما بينا الميثاق نبيّن الآيات ليتدبرها الناس وليرجعوا عما هم عليه من الإصرار على الباطل وتقليد الآباء ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾ أي واتل يا محمد على اليهود خبر وقصة ذلك العالم الذي علمناه علم بعض كتب الله فانسلخ من الآيات كما تنسلخ الحية من جلدها بأن كفر بها وأعرض عنها ﴿فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾ أي فلحقه الشيطان واستحوذ عليه حتى جعله في زمرة الضالين الراسخين في الغَواية بعد أن كان من المهتدين قال ابن عباس : هو « بلعم بن باعوراء » كان عنده اسم الله الأعظم وقال ابن مسعود : هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى إلى ملك « مَدْيَنَ » داعياً إلى الله فرشاه الملك وأعطاه المُلْك على أن يترك دين موسى ويتابع الملك على دينه ففعل وأضل الناس بذلك[1] ﴿ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه﴾ أي لو شئنا لرفعناه إلى منزل العلماء الأبرار ولكنه مال إلى الدنيا وسكن إليها وآثر لذاتها وشهواتها على الآخرة واتبع ما تهواه نفسه فانحط أسفل سافلين ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلْهث أو تتركه يلهثْ﴾ أي فمثله في الخسة والدناءة كمثل الكلب إن طردته وزجرته فسعى لَهَث ، وإن تركته على حاله لَهَث ، وهو تمثيل بادي الروعة ظاهر البلاغة ﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي هذا المثل السيء هو مثلٌ لكل من كذّب بآيات الله ، وفيه تعريضٌ باليهود فقد أوتوا التوراة وعرفوا صفة النبي عليه الصلاة والسلام فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة ﴿فاقصص القَصَص لعلهم يتفكرون﴾ أي اقصص على أمتك ما أوحينا إليك لعلهم يتدبرون فيها ويتعظون ﴿ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي بئس مثلاً مثلُ القوم المكذبين بآيات الله ﴿وأنفسَهم كانوا يظلمون﴾ أي وما ظلموا

(١) التسهيل ٢/ ٥٤

﴿ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾

بالتكذيب إلا أنفسهم فإن وباله لا يتعداها ﴿من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ أي من هداه الله فهو السعيد الموفق ، ومن أضله فهو الخائب الخاسر لا محالة ، والغرضُ من الآية بيان أن الهداية والإضلال بيد الله ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾ أي خلقنا لجهنم ليكونوا حطباً لها خلقاً كثيراً كائناً من الجن والإنس ، والمراد بهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ﴿لهم قلوبٌ لا يفقهون بها﴾ أي لهم قلوب لا يفهمون بها الحق ﴿ولهم أعينٌ لا يبصرون بها﴾ أي لا يبصرون بها دلائل قدرة الله بصر اعتبار ﴿ولهم أذان لا يسمعون بها﴾ أي لا يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ ، وليس المراد نفي السمع والبصر بالكلية وإنما المراد نفيها عما ينفعها في الدين ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾ أي هم كالحيوانات في عدم الفقه والبصر والاستماع بل هم أسوأ حالاً من الحيوانات فإنها تدرك منافعها ومضارها وهؤلاء لا يميزون بين المنافع والمضار ولهذا يُقْدمون على النار ﴿أولئك هم الغافلون﴾ أي الغارقون في الغفلة ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ أي لله الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها فسمّوه بتلك الأسماء ﴿وذروا الذين يُلحدون في أسمائه﴾ أي اتركوا الذين يميلون في أسمائه تعالى عن الحق كما فعل المشركون حيث اشتقوا لآلهتهم أسماء منها كاللات من الله ، والعُزّى من العزيز ، ومناة من المنّان ﴿سيُجزون ما كانوا يعملون﴾ أي سينالون جزاء ما عملوا في الآخرة ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ أي ومن بعض الأمم التي خلقنا أمة مستمسكة بشرع الله قولاً وعملاً يدعون الناس إلى الحق وبه يعملون ويقضون قال ابن كثير : والمراد في الآية هذه الأمة المحمدية لحديث (لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خَذَلَهم ولا من خَالَفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك)[1] وهذه الطائفة لا تختص بزمان دون زمان بل هم في كل زمان وفي كل مكان ، فالإسلام دائماً يعلو ولا يُعلى عليه وإن كثر الفُسَّاق وأهل الشر فلا عبرة فيهم ولا صَوْلَة لهم ، وفي الحديث بشارة عظيمة لهذه الأمة المحمدية بأن الإسلام في علوّشرف وأهله كذلك إلى قرب الساعة ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ أي والذين كذبوا بالقرآن من أهل مكة وغيرهم سنأخذهم قليلاً وندنيهم من الهلاك من حيث لا يشعرون قال البيضاوي : وذلك بأن تتواتر عليهم النعم ، فيظنوا أنها لطف من الله تعالى بهم فيزدادوا بطراً وانهماكاً في الغيّ حتى تحق عليهم كلمة العذاب[2] ﴿وأملي لهم﴾ أي وأمهلهم ثم آخذهم أخذ

(١) المختصر ٢/ ٧٠ والحديث في الصحيحين . (٢) البيضاوي ص ٢٠٥ .

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

عزيز مقتدر كما في الحديث الشريف (إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته) ﴿إن كيدي متين﴾ أي أخذي وعقابي قوي شديد وإنما سمّاه كيداً لأن ظاهره إحسانٌ وباطنه خذلان ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنّة﴾ أي أولم يتفكر هؤلاء المكذبون بآيات الله فيعلموا أنه ليس بمحمدﷺ جنون بل هو رسول الله حقاً أرسله الله لهدايتهم ، وهذا نفيٌ لما نسبه له المشركون من الجنون في قولهم ﴿يا أيها الذي نُزّل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ ﴿إن هو إلا نذيرٌ مبين﴾ أي ليس محمد إلا رسول منذر أمره بيّن واضح لمن كان له لبٌّ أو قلبٌ يعقل به ويعي ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾ أي أولم ينظروا نظر استدلال في ملك الله الواسع مما يدل على عظم الملك وكمال القدرة ، والاستفهام للإنكار والتعجب والتوبيخ ﴿وما خلق الله من شيء﴾ أي وفي جميع مخلوقات الله الجليل فيها والدقيق فيستدلوا بذلك على كمال قدرة صانعها وعظم شأن مالكها ووحدة خالقها ومبدعها ؟ ﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ أي وأن يتفكروا لعلهم يموتون عن قريب فينبغي لهم أن يسارعوا إلى النظر والتدبر فيما يخلصهم عند الله قبل حلول الأجل ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ أي فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به وهو النهاية في الظهور والبيان ﴿من يضلل الله فلا هادي له﴾ أي من كتب الله عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد ﴿ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي ويتركهم في كفرهم وتمردهم يترددون ويتحيرون .

البــلاغــة : ١ - ﴿وإذْ أخذ ربك﴾ فيه التفات من المتكلم إلى المخاطب والأصلُ وإذْ أخذنا والنكتة في ذلك تعظيم شأن الرسول بتوجيه الخطاب له ، ولا يخفى أيضاً ما في الإضافة إلى ضميره عليه السلام ﴿ربك﴾ من التكريم والتشريف ، وفي الآية البيانُ بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال ﴿فانسلخ منها﴾ أي خرج منها بالكلية انسلاخ الجلد من الشاة قال أبو السعود : التعبير عن الخروج منها بالانسلاخ للإيذان بكمال مباينته للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتصال[1] ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ فيه تشبيه تمثيلي أي حاله التي هي مثلٌ في السوء كحال أخسّ الحيوانات وأسفلها وهي حالة الكلب في دوام لهثه في حالتيَ التعب والراحة فالصورة منتزعة من متعدد ولهذا يسمى التشبيه التمثيلي ﴿أولئك كالأنعام﴾ التشبيه هنا مرسل مجمل .

فــائــدة : روي عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ألستُ بربكم قالوا بلى﴾ أنه قال : لو قالوا نعم لكفروا ، ووجهه أن « نَعَمْ » تصديقٌ للمخبر بنفيٍ أو إيجاب فكأنهم أقروا أنه ليس ربهم بخلاف « بلى »

(١) أبو السعود ٢/ ٢١٠ .

فإنها حرف جواب وتختص بالنفي وتفيد إبطاله فالمعنى بلى أنت ربنا ولو قالوا نعم لصار المعنى نعم لستَ ربنا فهذا وجه قول ابن عباس فتنبه له فإنه دقيق .

تـنبيـه : في الحديث الشريف (إنّ لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة) رواه الترمذي قال العلماء : معناه من حفظها وتفكر في مدلولها دخل الجنة وليس المراد حصر أسمائه تعالى في هذه التسعة والتسعين بدليل ما جاء في الحديث الآخر (اسألك بكل اسم سميت به نفسك ، او استأثرت به في علم الغيب عندك) وقد ذكر ابن العربي عن بعضهم أن لله تعالى ألف اسم .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يسئلونك عن الساعة أيان مرساها . . إلى . . ويسبحونه وله يسجدون﴾

من آية (١٨٧) إلى اية (٢٠٦) نهاية السورة الكريمة .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى موقف المستهزئين من دعوة الرسول ﷺ ذكر هنا طرفاً من عنادهم واستهزائهم بسؤالهم الرسول ﷺ عن وقت قيام الساعة ، ثم ذكر الحجج والبراهين على بطلان عقيدة المشركين في عبادة الأوثان والأصنام ، وختم السورة الكريمة ببيان عظمة شأن القرآن ووجوب الاستماع والإنصات عند تلاوته .

اللغَـة : ﴿مرساها﴾ استقرارها وحصولها من أرساه إذا أثبته وأقره ومنه رست السفينة إذا ثبتت ووقفت ﴿يجلّيها﴾ يظهرها ، والتجلية : الكشفُ والإظهار ﴿حفيٌّ﴾ الحفيُّ : المستقصي للشيء المعتني بأمره قال الأعشى :

فإن تسـألي عنـي فيا ربَّ سائلٍ حفيٌّ عن الأعشى به حيث أصْعَدا[١]

والإحفاء الاستقصاء ومنه إحفاء الشوارب وحفي عن الشيء إذا بحث للتعرف عن حاله ﴿العُرْف﴾ المعروف وهو كل خصلة حميدة ترتضيها العقول وتطمئن إليها النفوس ﴿الآصال﴾ جمع أصيل قال الجوهري : والأصيل الوقت بعد العصر إلى المغرب[٢].

سَبَبُ النّزول : روي أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : إن كنتَ نبياً فأخبرنا عن الساعة متى تقوم ؟ فأنزل الله ﴿يسألونك عن الساعة أيّان مرساها﴾[٣] .

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

التفسِـير : ﴿يسألونك عن الساعة﴾ أي يسألونك يا محمد عن القيامة ﴿أيّان مرساها﴾ أي متى وقوعها وحدوثها ؟ وسميت القيامة ساعة لسرعة ما فيها من الحساب كقوله ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أوهو أقرب﴾ ﴿قل إنما علمها عند ربي﴾ أي قل لهم يا محمد لا يعلم الوقت الذي يحصل قيام القيامة فيه

(١) القرطبي ٧/ ٣٣٦ . (٢) الصحاح مادة أصل . (٣) القرطبي ٧/ ٣٣٥ .

وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا

إلا الله سبحانه ثم أكّد ذلك بقوله ﴿لا يُجلّيها لوقتها إلا هو﴾ أي لا يكشف أمرها ولا يظهرها للناس إلا الرب سبحانه بالذات فهو العالم بوقتها ﴿ثقُلت في السموات والأرض﴾ أي عظُمت على أهل السموات والأرض حيث يشفقون منها ويخافون شدائدها وأهوالها[١] ﴿يسألونك كأنك حفيٌّ عنها﴾ أي يسألونك يا محمد عن وقتها كأنك كثير السؤال عنها شديد الطلب لمعرفتها ﴿قل إنما علمها عند الله﴾ أي لا يعلم وقتها إلا الله لأنها من الأمور الغيبية التي استأثر بها علاّم الغيوب ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون السبب الذي لأجله أُخْفِيتْ قال الإمام الفخر : والحكمة في إخفاء الساعة عن العباد أنهم إذا لم يعلموا متى تكون كانوا على حذرٍ منها فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية[٢] ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله﴾ أي لا أملك أن أجلب إلى نفسي خيراً ولا أدفع عنها شراً إلا بمشيئته تعالى فكيف أملك علم الساعة ؟ ﴿ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرت من الخير﴾ أي لو كنت أعرف أمور الغيب لحصّلت كثيراً من منافع الدنيا وخيراتها ودفعت عني آفاتها ومضراتها ﴿وما مسني السوء﴾ أي لو كنت أعلم الغيب لاحترست من السوء ولكنْ لا أعلمه فلهذا يصيبني ما قُدِّر لي من الخير والشر ﴿إن أنا إلا نذير وبشير﴾ أي ما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة ﴿لقوم يؤمنون﴾ أي لقوم يصدقون بما جئتهم به من عند الله ﴿هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة﴾ أي هو سبحانه ذلك العظيم الشأن الذي خلقكم جميعاً وحده من غير معين من نفسٍ واحدة هي آدم عليه السلام ﴿وجعل منها زوجها﴾ أي وخلق منها حواء ﴿ليسكن إليها﴾ أي ليطمئن إليها ويستأنس بها ﴿فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً﴾ أي فلما جامعها حملت بالجنين حملاً خفيفاً دون إزعاج لكونه نطفةً في بادىء الأمر قال ابو السعود : فإنه عند كونه نطفة أو علقة أخف عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك من المراتب ، والتعرضُ لذكر خفته للإشارة الى نعمته تعالى عليهم في إنشائه إياهم متدرجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ، ومن الضعف إلى القوة[٣] ﴿فمرت به﴾ أي استمرت به إلى حين ميلاده ﴿فلما أثقلت﴾ أي ثقل حملها وصارت به ثقيلة لكبر الحمل في بطنها ﴿دعَوا الله ربهما﴾ أي دعوا الله مربيهما ومالك أمرهما ﴿لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين﴾ أي لئن رزقتنا ولداً صالحاً سويَّ الخِلْقة لنشكرنَّك

(١) هذا قول قتادة وقيل المعنى : خفي علمها على أهل السموات والأرض . (٢) الفخر الرازي ٤/ ٤٨٤ . (٣) أبو السعود ٢

يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ

على نعمائك ﴿فلما آتاهما صالحاً﴾ أي فلما وهبهما الولد الصالح السويّ ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ أي جعل هؤلاء الأولاد والذرية[1] شركاء مع الله فعبدوا الأوثان والأصنام ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ أي تنزّه وتقدّس الله عما ينسبه إليه المشركون ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً﴾ الاستفهام للتوبيخ أي أيشركون مع الله ما لا يقدر على خلق شيء أصلاً ﴿وهم يخلقون﴾ أي والحال أن تلك الأوثان والآلهة مخلوقة فكيف يعبدونها مع الله ؟ قال القرطبي : وجمع الضمير بالواو والنون لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع فأجريت مجرى الناس[2] ﴿ولا يستطيعون لهم نصراً﴾ أي لا تستطيع هذه الأصنام نصر عابديها ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ أي ولا ينصرون أنفسهم ممن أرادهم بسوء ، فهم في غاية العجز والذلة فكيف يكونون آلهة ؟ ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتّبعوكم﴾ أي أن الأصنام لا تجيب إذا دعيت إلى خير أو رشاد لأنها جمادات ﴿سواءٌ عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ أي يتساوى في عدم الإفادة دعاؤكم لهم وسكوتكم قال ابن كثير : يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها ، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها كما قال ابراهيم ﴿يا أبتِ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ [3] ﴿إنَّ الذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثالكم﴾ أي إن الذين تعبدونهم من دونه تعالى من الأصنام وتسمونهم آلهة مخلوقون مثلكم بل الأناس أكمل منها لأنها تسمع وتبصر وتبطش وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك فلهذا قال ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾ أمرٌ على جهة التعجيز والتبكيت أي أدعوهم في جلب نفع أو دفع ضرٍّ إن كنتم صادقين في دعوى أنها آلهة[4] ﴿ألهم أرجلٌ

(١) ذهبنا إلى هذا الرأي لجلائه ووضوحه وهو ما رجحه المحققون من أهل العلم . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في «آدم وحواء» وأن الضمير في قوله تعالى ﴿جعلا له شركاء﴾ يعود إليهما ورووا في ذلك أحاديث وآثار منها ما روي عن سمرة مرفوعاً قال : «لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش بها ولد فقال سمّيه : عبد الحارث فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان» رواه أحمد والترمذي قال الحافظ ابن كثير : وهذا الحديث معلولٌ من ثلاثة أوجه وقد وضحها رحمه الله ورجح أن الحديث موقوف وضعّف ما ورد من آثار ثم روى بسنده عن الحسن أنه قال : كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم ثم قال ابن كثير : وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق «آدم وحواء» وإنما المراد المشركون من ذريته بدليل قول الله بعده ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ أقول : وهو الحق الذي لا محيد عنه (٢) القرطبي ٧/٣٤١ .

(٣) المختصر ٢/٧٥ (٤) قال الحافظ ابن كثير : اسلم معاذ بن جبل . ومعاذ بن عمرو بن الجموح وكانا شابين فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتخذانها حطباً ، وكان لعَمْرو بن الجموح ـ وهو سيد قومه ـ صنمٌ يعبده ويطيّبه فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة ـ النجس ـ فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيّبه ويضع عنده سيفاً ويقول له : انتصر ، ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلّياه في بئر هناك ، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك علم أن ما عليه من الدين باطل فأنشد يقول

«تاللّه لو كنتَ إلهاً مستَدن لم تكُ والكلبَ جميعاً في قَرَن»

ثم أسلم فحسن إسلامه وقتل يوم أحد شهيداً .

أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّـۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ

يمشون بها﴾ توبيخ إثر توبيخ وكذلك ما بعده من الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي هل لهذه الأصنام ﴿أم لهم أيدٍ يبطشون بها﴾ أي أم هل لهم أيدٍ تفتك وتبطش بمن أرادها بسوء؟ ﴿أم لهم أعينٌ يبصرون بها﴾ أي أم هل لهم أعينٌ تبصر بها الأشياء؟ ﴿أم لهم آذان يسمعون بها﴾ أي أم هل لهم آذان تسمع بها الأصوات ؟ والغرض بيان جهلهم وتسفيه عقولهم في عبادة جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن عابدها شيئاً لأنها فقدت الحواس وفاقد الشيء لا يعطيه ، والإنسان أفضل بكثير من هذه الأصنام لوجود العقل والحواس فيه فكيف يليق بالأكمل الأشرف أن يشتغل بعبادة الأخسّ الأدون الذي لا يحسُّ منه فائدة أبداً لا في جلب منفعة ولا في دفع مضرّة ؟! ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾ أي قل لهم يا محمد أدعوا أصنامكم واستنصروا واستعينوا بها عليَّ ﴿ثم كيدون فلا تُنْظرون﴾ أي ابذلوا جهدكم أنتم وهم في الكيد لي وإلحاق الأذى والمضرة بي ولا تمهلون طرفة عين ، فإني لا أبالي بكم لاعتمادي على الله قال الحسن : خوفوا الرسول ﷺ بآلهتهم فأمره تعالى أن يجابهم بذلك ﴿إن وليّي الله الذي نزّل الكتاب﴾ أي إنَّ الذي يتولى نصري وحفظي هو الله الذي نزّل عليَّ القرآن ﴿وهو يتولّى الصالحين﴾ أي هو جل وعلا يتولى عباده الصالحين بالحفظ والتأييد، وهو وليهم في الدنيا والآخرة ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾ كرّره ليبيّن أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضر ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا﴾ أي وإن تدعوا هذه الأصنام إلى الهداية والرشاد لا يسمعوا دعاءكم فضلاً عن المساعدة والإمداد ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ أي وتراهم يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد لا تبصر لأن لهم صورة الأعين وهم لا يرون بها شيئاً ﴿خذ العفو﴾ أمرٌ له عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق أي خذ بالسهل اليسير في معاملة الناس ومعاشرتهم قال ابن كثير : وهذا أشهر الأقوال ويشهد له قول جبريل للرسول ﷺ « إن الله يأمركَ أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك » ﴿وأمرْ بالعُرف﴾ أي بالمعروف والجميل المستحسن من الأقوال والأفعال ﴿وأعرضْ عن الجاهلين﴾ أي لا تقابل السفهاء بمثل سفههم بل احلم عليهم قال القرطبي : وهذا وإن كان خطاباً لنبيه عليه الصلاة والسلام فهو تأديبٌ لجميع خلقه[1] ﴿وإمّا ينزغنّك من الشيطان نزغٌ﴾ أي وإمّا يصيبنَّك يا محمد طائف من الشيطان

---

(١) القرطبي ٧/ ٣٤٧

نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

بالوسوسة والتشكيك في الحق ﴿فاستعذ بالله﴾ أي فاستجر بالله والجأ إليه في دفعه عنك ﴿إنه سميعٌ عليم﴾ أي سميعٌ لما تقول عليمٌ بما تفعل ﴿إن الذين اتقوا﴾ أي الذين اتصفوا بتقوى الله ﴿إذامسّهم طائف من الشيطان﴾ أي إذا أصابهم الشيطان بوسوسته وحام حولهم بهواجسه ﴿تذكّروا﴾ أي تذكروا عقاب الله وثوابه ﴿فإذا هم مبصرون﴾ أي يبصرون الحق بنور البصيرة ويتخلصون من وساوس الشيطان ﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي﴾ أي إخوان الشياطين الذين لم يتقوا الله وهم الكفرة الفجرة فإن الشياطين تغويهم وتزين لهم سبل الضلال ﴿ثم لا يُقصرون﴾ أي لا يمْسكون ولا يكفّون عن إغوائهم ﴿وإذا لم تأتهم بآية﴾ أي وإذا لم تأتهم بمعجزةٍ كما اقترحوا ﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾ أي هلاّ اختلقتها يا محمد واخترعتها من عند نفسك ؟! وهو تهكمٌ منهم لعنهم الله ﴿قل إنما أتبع ما يوحى إليَّ من ربي﴾ أي قل لهم يا محمد ليس الأمر إليَّ حتى آتي بشيءٍ من عند نفسي وإنما أنا عبدٌ امتثل ما يوحيه الله إليَّ ﴿هذا بصائر من ربكم﴾ أي هذا القرآن الجليل حججٌ بيِّنة ، وبراهين نيّرة يغني عن غيره من المعجزات فهو بمنزلة البصائر للقلوب به يُبْصر الحق ويُدرك ﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي وهداية ورحمة للمؤمنين لأنهم المقتبسون من أنواره والمنتفعون من أحكامه﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ أي وإذا تليت آيات القرآن فاستمعوها بتدبر واسكتوا عند تلاوته إعظاماً للقرآن وإجلالاً ﴿لعلكم ترحمون﴾ أي لكي تفوزوا بالرحمة ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ أي واذكر ربك سراً مستحضراً لعظمته وجلاله ﴿تضرعاً وخيفة﴾ أي متضرعاً إليه وخائفاً منه ﴿ودون الجهر من القول﴾ أي وسطاً بين الجهر والسرّ ﴿بالغدو والآصال﴾ أي في الصباح والعشيّ ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ أي ولا تغفُل عن ذكر الله ﴿إن الذين عند ربك﴾ أي الملائكة الأطهار ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ أي لا يتكبرون عن عبادة ربهم ﴿ويسبحونه﴾ أي ينزهونه عما لا يليق به ﴿وله يسجدون﴾ أي لا يسجدون إلا لله .

البَــلاَغَــة : ١ ـ ﴿كأنك حفيٌّ عنها﴾ التشبيه مرسل مجمل لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه .

٢ ـ ﴿فلما تغشاها﴾ التغشي هنا كناية عن الجماع وهو من الكنايات اللطيفة .

٣ ـ ﴿ألهم أرجل يمشون بها . .﴾ الخ هذا الأسلوب يسمى « الإطناب » وفائدته زيادة التقريع والتوبيخ .

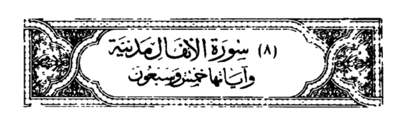
٤ ـ ﴿ينزغنَّك من الشيطان نزغٌ﴾ شبّه وسوسة الشيطان وإغراءه الناس على المعاصي بالنزغ وهو إدخال الإبرة وما شابهها في الجلد ففيه استعارة لطيفة .

٥ ـ ﴿هذا بصائر من ربكم﴾ فيه تشبيه بليغ وأصله هذا كالبصائر ، حُذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فهو بليغ ويرى بعض العلماء أنه من قبيل المجاز المرسل حيث أطلق المسبَّب على السبب لأن القرآن لما كان سبباً لتنوير العقول أطلق عليه لفظ البصيرة .

لطيفة : حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : ما تصنع بالشيطان إذا سوَّل لك الخطايا ؟ قال : أجاهده قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده ، قال إن هذا يطول ، أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنعك من العبور ماذا تصنع ؟ قال : أكابده وأرده جهدي قال : هذا يطول عليك ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك ، فهذه فائدة الإستعاذة.

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعراف »

* * *



بين يدي السورة

* سورة الأنفال إحدى السور المدنية التي عُنيت بجانب التشريع ، وبخاصة فيما يتعلق بالغزوات والجهاد في سبيل الله ، فقد عالجت بعض النواحي الحربية التي ظهرت عقب بعض الغزوات ، وتضمنت كثيراً من التشريعات الحربية ، والإرشادات الإلهية التي يجب على المؤمنين اتباعها في قتالهم لأعداء الله ، وتناولت جانب السلم والحرب ، وأحكام الأسر والغنائم .

* نزلت هذه السورة الكريمة في أعقاب « غزوة بدر » التي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام المجيد ، وبداية النصر لجند الرحمن حتى سماها بعض الصحابة « سورة بدر » لأنها تناولت أحداث هذه الموقعة بإسهاب ، ورسمت الخطة التفصيلية للقتال ، وبيّنت ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من البطولة والشهامة ، والوقوف في وجه الباطل بكل شجاعة وجرأة وحزم وصمود .

* ومن المعلوم من تاريخ الغزوات التي خاضها المسلمون أن غزوة بدر كانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وكانت هي الجولة الأولى من جولات الحق مع الباطل ، ورد البغي والطغيان ، وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين قعد بهم الضعف في مكة ، وأخذوا في الضراعة إلى الله أن يخرجهم من القرية الظالم أهلها ، وقد استجاب الله ضراعتهم فهيأ لهم ظروف تلك الغزوة ، التي تمَّ فيها النصر للمؤمنين على قلة في عددهم ، وضعف في عُدَدهم ، وعلى عدم تهيئهم للقتال ، وبها عرف أنصار الباطل أنه مهما طال أمده ، وقويت شوكته ، وامتد سلطانه ، فلا بدَّ له من يوم يخرّ فيه صريعاً أمام جلال الحق وقوة الإيمان ، وهكذا كانت غزوة بدر نصراً للمؤمنين ، وهزيمة للمشركين .

* وفي ثنايا سرد أحداث بدر جاءت النداءات الإلهية للمؤمنين ست مرات بوصف الإيمان ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ كحافز لهم على الصبر والثبات في مجاهدتهم لأعداء الله ، وكتذكير لهم بأن هذه التكاليف التي أُمروا بها من مقتضيات الإيمان الذي تحلوا به ، وأن النصر الذي حازوا عليه كان بسبب الإيمان لا بكثرة السلاح والرجال .

* **أما النداء الأول : فقد جاء فيه التحذير من الفرار من المعركة ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين**

كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار﴾ وقد توعدت الآيات المنهزمين أمام الأعداء بأشد العذاب .

* وأما النداء الثاني : فقد جاء فيه الأمر بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون﴾ كما صوّرت الآيات الكافرين بالأنعام السارحة التي لا تسمع ولا تعي ولا تستجيب لدعوة الحق .

* وأما النداء الثالث :فقد بيّن فيه أن ما يدعوهم إليه الرسول فيه حياتهم وعزتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم . .﴾ الآية .

* وأما النداء الرابع : فقد نبههم فيه إلى أنَّ إفشاء سر الأمة للأعداء خيانة للّهِ ولرسوله وخيانةللأمة أيضاً ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ .

* وأما النداء الخامس : فقد لفت نظرهم فيه إلى ثمرة التقوى ، وذكرهم بأنها أساس الخير كله ، وأن من أعظم ثمرات التقوى ذلك النور الرباني ، الذي يقذفه الله في قلب المؤمن ، وبه يفرق بين الرشد والغيّ ، والهدى والضلال ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم﴾ .

* وأما النداء السادس : وهو النداء الأخير فقد وضّح لهم فيه طريق العزة ، وأسس النصر ، وذلك بالثبات أمام الأعداء ، والصبر عند اللقاء ، واستحضار عظمة الله التي لا تحد ، وقوته التي لا تقهر ، والاعتصام بالمدد الروحي الذي يعينهم على الثبات ألا وهو ذكر الله كثيراً ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ .

* وقد ختمت السورة الكريمة ببيان الولاية الكاملة بين المؤمنين ،وأنه مهما تناءت ديارهم ،واختلفت أجناسهم ، فهم أمة واحدة ، وعليهم نصر الذين يستنصرونهم في الدين ، كما أن ملة الكفر أيضاً واحدة ، وبين الكافرين ولاية قائمة على أسس البغي والضلال ، وأنه لا ولاية بين المؤمنين والكافرين ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلاّ تفعلوه تكن فِتنةٌ في الأرض وفساد كبير﴾ .

* هذه خلاصة ما أشارت إليه السورة الكريمة من أهداف ، وما أرشدت إليه من دروس وعبر ، نسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفهم والبصر .

قال الله تعالى : ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال . . إلى . . لتولوا وهم معرضون﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (٢٣) .

اللغـة : ﴿الأنفال﴾ الغنائم جمع نفل بالفتح وهو الزيادة وسميت الغنائم به لأنها زيادة على القيام بحماية الدين والأوطان ، وتسمى صلاة التطوع نفلاً ، وولد الولد نافلة لهذا المعنى قال لبيد :

إنَّ تقوى ربّنا خير نفل   وبإذن اللهِ ريثي والعجل

﴿وجلت﴾ الوجل : الخوف والفزع ﴿ذات الشوكة﴾ الشوكة : السلاح وأصلها من الشَّوك قال أبو عبيدة : ومجاز الشوكة الحد يقال : ما أشدَّ شوكة بني فلان أي حدّهم[1] ﴿تستغيثون﴾ الاستغاثة : طلب النصرة والعون ﴿مردفين﴾ متتابعين يتلو بعضهم بعضاً وردف وأردف بمعنى واحد أي تبع قال الطبري : العرب تقول : أردفته وردِفته بمعنى تبعته وأتبعته قال الشاعر : إذا الجوزاء أردفت الثريا[2] ﴿بنان﴾ البنان : جمع بنانة وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين قال عنترة :

وكان فتى الهيجاء يحمي ذِمارها ويضرب عند الكَرْبِ كلَّ بنان[3]

﴿زحفاً﴾ الزحف: الدنو قليلاً مأخوذ من زحف الصبي إذا مشى على أليته قليلاً قليلاً ثم سمي به الجيش الكثير العدد لأنه لكثرته وتكاثفه يرى كأنه يزحف زحفاً ﴿متحيزاً﴾ منضماً يقال : تحيَّز أي انضم واجتمع إلى غيره ﴿باء﴾ رجع ﴿موهن﴾ مضعف ﴿تستفتحوا﴾ استفتح : أي طلب الفتح والنصرة على عدوه .

سَبَبُ النّزول : أ ـ عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا ، فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات ، وأما الشبان فتسارعوا الى القتل والغنائم فقال المشيخة للشبان : أشركونا معكم فإننا كنا لكم ردءاً ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا فأبوا واختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ الآية فقسَّم ﷺ الغنائم بينهم بالسوية[4] .

ب ـ روي أن النبي ﷺ أخذ قبضة من تراب يوم بدر فرمى بها في وجوه القوم وقال : شاهت الوجوه فما بقي أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخريه تراب من تلك القبضة وولوا مدبرين فنزلت ﴿وما رميت إذ رميت ولكنَّ الله رمى . . ﴾ الآية[5] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ

التفسير : ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد عن الغنائم التي غنمتها من بدر لمن هي ؟ وكيف تقسم ؟ ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ أي قل لهم : الحكم فيها لله والرسول لا لكم ﴿فاتقوا الله﴾ أي اتقوا الله بطاعته واجتناب معاصيه ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي أصلحوا الحال التي بينكم بالائتلاف وعدم الاختلاف ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في الحكم في الغنائم قال عبادة بن الصامت : نزلت فينا أصحاب بدر حين اختلفنا وساءت أخلاقنا ، فنزع الله الأنفال من أيدينا وجعلها لرسول الله ﷺ فقسمها على السواء فكان في ذلك تقوى الله ، وطاعة رسوله ، وإصلاح ذات البين[6] ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ شرط حذف جوابه أي إن كنتم حقاً مؤمنين كاملين في الإيمان فأطيعوا الله ورسوله ﴿إنما المؤمنون﴾ أي إنما الكاملون في الإيمان المخلصون فيه ﴿الذين إذا ذُكر اللهُ وجلت

(١) زاد المسير ٣/ ٣٢٤ . (٢) الطبري ١٣/ ٤١٥ . (٣) القرطبي ٧/ ٣٧٩ .
(٤) روح المعاني ٩/ ١٦٢ . (٥) الطبري ١٣/ ٤٤٥ . (٦) التسهيل ٢/ ٦٠ .

إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾

قلوبهم﴾ أي إذا ذكر اسم الله فزعت قلوبهم لمجرد ذكره ، استعظاماً لشأنه ، وتهيباً منه جلَّ وعلا ﴿وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾ أي إذا تليت عليهم آيات القرآن ازداد تصديقهم ويقينهم بالله ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ [1] أي لا يرجون غير الله ولا يرهبون سواه قال في البحر : أخبر عنهم باسم الموصول بثلاث مقامات عظيمة وهي : مقام الخوف ، ومقام الزيادة في الإيمان ، ومقام التوكل على الرحمن[2] ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ أي يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل بخشوعها وفروضها وآدابها ﴿وممّا رزقناهم ينفقون﴾ أي وينفقون في طاعة الله مما أعطاهم الله ، وهو عام في الزكاة ونوافل الصدقات ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ أي المتصفون بما ذكر من الصفات الحميدة هم المؤمنون إيماناً حقاً لأنهم جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ﴿لهم درجات عند ربهم﴾ أي لهم منازل رفيعة في الجنة ﴿ومغفرة﴾ أي تكفير لما فرط منهم من الذنوب ﴿ورزق كريم﴾ أي رزق دائم مستمر مقرون بالإكرام والتعظيم ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ الكاف تقتضي مشبّهاً قال ابن عطية : شبهت هذه القصة التي هي إخراجه من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال وكراهتهم لما وقع[3] فيها ، والمعنى : حالهم في كراهة تنفيل الغنائم كحالهم في حالة خروجك للحرب وقال الطبري : المعنى : كما أخرجك ربك بالحق على كرهٍ من فريقٍ من المؤمنين كذلك يجادلونك في الحق بعدما تَبيَّن ، والحقُّ الذي كانوا يجادلون فيه النبيﷺ بعد ما تبيّنوه هو القتال[4] ﴿وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ أي والحال أن فريقاً منهم كارهون للخروج لقتال العدو خوفاً من القتل أو لعدم الاستعداد ﴿يجادلونك في الحق بعد ما تَبيَّن﴾ أي يجادلونك يا محمد في شأن الخروج للقتال بعد أن وضح لهم الحق وبان ، وكان جدالهم هو قولهم : ما كان خروجنا إلاّ للعير ولو عرفنا لاستعددنا للقتال ﴿كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ قال البيضاوي : أي يكرهون القتال كراهة من ينساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه ، وذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم ، وفيه إيماء إلى أن مجادلتهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم[5] ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾ أي اذكروا حين وعدكم الله يا أصحاب محمد إحدى الفرقتين انها لكم غنيمة

---

(١) قال ابن الخطيب : ليقرأ هذه الآية وليتدبرها كل مؤمن ، وليعرضها على نفسه ، فإن وجدها تنطبق على صفاته فليهنأ بما آتاه الله من فضل ، وما وهبه من خير ، وإن وجدها في وادٍ وهو في واد ، فليلجأ إلى الرحيم الودود ، وليجأر الى اللطيف الحميد ، ان يصفي قلبه ويزيده إيماناً وتوكلا ، ويوفقه لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فنعم القريب ونعم المجيب ، وليكن هذا بإخلاص قلب وصدق طوية .

(٢) البحر ٤/ ٤٥٧ . (٣) الطبري ٤/ ٤٦١ . (٤) الطبري ١٣/ ٢٩٣ . (٥) البيضاوي ص ٢٠٩ .

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ﴾

إما العير أو النفير ﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ أي وتحبون أن تلقوا الطائفة التي لا سلاح لها وهي العير لأنها كانت محمّلة بتجارة قريش قال المفسرون : روي أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة برآسة أبي سفيان ، ونزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد : إن الله وعدكم إحدى الطائفتين : إما العير وإما قريشاً ، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه فاختاروا العير لخفة الحرب وكثرة الغنيمة ، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة فنادى أبو جهل : يا أهل مكة النجاء النجاءَ ، عيركُم أموالكم إن أصابها محمد فلن تفلحوا بعدها أبداً ، فخرج المشركون على كل صعب وذلول ومعهم أبو جهل حتى وصلوا بدراً ، ونجت القافلة فأخبر الرسول ﷺ أصحابه وقال لهم : إن العير قد مضت على ساحل البحر ، وهذا أبو جهل قد أقبل ، فقالوا يا رسول الله : عليك بالعير ودع العدو فغضب رسول الله فقام سعد بن عبادة فقال : امض بنا لما شئت فإنا متبعوك ، وقام سعد بن معاذ فقال : والذي بعثك بالحق لو خضت بنا البحر لخضناه معك فسرْ بنا على بركة الله ، فسُرَّ رسول الله ﷺ وقال لأصحابه : سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم[1] ﴿ويريد الله أن يحقَّ الحقَّ بكلماته﴾ أي يظهر الدين الحق وهو الإسلام بقتل الكفار وإهلاكهم يوم بدر ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ أي يستأصل الكافرين ويهلكهم جملة من أصلهم قال في البحر : والمعنى أنكم ترغبون في الفائدة العاجلة ، وسلامة الأحوال ، وسفساف الأمور ، والله تعالى يريد معالي الأمور ، وإعلاء الحق ، والفوز في الدارين ، وشتّان ما بين المرادين ، ولذلك اختار لكم ذات الشوكة وأراكهم عياناً خذلانهم ، فنصركم وهزمهم ، وأذلهم وأعزكم[2] ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾ متعلق بمحذوف تقديره : ليحق الحقَّ ويبطل الباطل فعل ما فعل والمراد إظهار الإسلام وإبطال الكفر ﴿ولو كره المجرمون﴾ أي ولو كره المشركون ذلك أي إظهار الإسلام وإبطال الشرك ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ أي اذكروا حين تطلبون من ربكم الغوث بالنصر على المشركين ، روي أن رسول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف ، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر ، فاستقبل القبلة ومدَّ يديه يدعو : اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تعبد في الأرض ، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأخذه أبو بكر فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبيَّ الله كفاكَ مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فنزلت هذه الآية ﴿فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة﴾ أي استجاب الله الدعاء بأني معينكم بألف من الملائكة ﴿مُرْدفين﴾ أي متتابعين يتبع بعضهم بعضاً قال

---

(١) البيضاوي ص ٢٠٩ بتصرف . (٢) البحر ٤/٤٦٤ .

﴿قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟﴾

المفسرون : ورد أن جبريل نزل بخمسمائة وقاتل بها في يمين الجيش ، ونزل ميكائيل بخمسمائة وقاتل بها في يسار الجيش ، ولم يثبت ان الملائكة قاتلت في وقعة إلا في بدر ، وأما في غيرها فكانت تنزل الملائكة لتكثير عدد المسلمين ولا تقاتل[١] ﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾ أي وما جعل إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بالنصر ﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾ أي ولتسكن بهذا الإمداد نفوسكم ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ أي وما النصر في الحقيقة إلا من عند الله العلي الكبير فثقوا بنصره ولا تتكلوا على قوتكم وعدّتكم ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي غالب لا يُغلب يفعل ما تقضي به الحكمة ﴿إذ يُغَشيكم النعاسَ أمنة منه﴾ أي يلقي عليكم النوم أمناً من عنده سبحانه وتعالى ، وهذه معجزة لرسول الله ﷺ حيث غشي الجميعَ النومُ في وقت الخوف قال علي رضي الله عنه : « ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح »[٢] قال ابن كثير : وكأن ذلك كان للمؤمنين عند شدة البأس ، لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله[٣] ﴿وينزل عليكم من السماء ماء﴾ تعديد لنعمة أخرى ، وذلك أنهم عدموا الماء في غزوة بدر فأنزل الله عليهم المطر حتى سالت الأودية ، وكان منهم من أصابته جنابة فتطهر بماء المطر ﴿ليطهّركم به﴾ أي من الأحداث والجنابات ﴿ويُذهب عنكم رجْزَ الشيطان﴾ أي يدفع عنكم وسوسته وتخويفه إياكم من العطش ، قال البيضاوي : روي أنهم نزلوا في كثيبٍ أعفر ، تسوخ فيه الأقدام على غير ماء ، وناموا فاحتلم أكثرهم فوسوس إليهم الشيطان وقال : كيف تُنصرون وقد غُلبتم على الماء ، وأنتم تصلون محدثين مجنبين وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ؟ فأنزل الله المطر حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة[٤] ﴿وليربط على قلوبكم﴾ أي يقوّيها بالثقة بنصر الله ﴿ويثبّت به الأقدام﴾ أي يُثبت بالمطر الأقدام حتى لا تسوخ في الرمل قال الطبري : ثبّت بالمطر أقدامهم لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رملةٍ ميثاء فلبّدها المطر حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها[٥] ﴿إذ يُوحي ربك إلى الملائكة أني معكم﴾ تذكير بنعمةٍ أخرى أي يوحي إلى الملائكة بأني معكم بالعون والنصر ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ أي ثبتوا المؤمنين وقوّوا أنفسهم على أعدائهم ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ أي سأقذف في قلوب الكافرين الخوف والفزع حتى ينهزموا ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ أي اضربوهم على الأعناق كقوله ﴿فضربَ الرقاب﴾ وقيل : المراد الرءوس لأنها فوق الأعناق ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ أي اضربوهم على أطراف الأصابع قال في التسهيل : وفائدة ذلك

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/١١٨ . (٢) رواه أبو يعلى . (٣) المختصر ٢/ ٩٠ .
(٤) البيضاوي ص ٢١٠ . (٥) الطبري ١٣/ ٤٢١ .

فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ

أن المقاتل إذا ضربت أصابعه تعطَّل عن القتال فأمكن أسره وقتله[1] ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أي ذلك العذاب الفظيع واقع عليهم بسبب مخالفتهم وعصيانهم لأمر الله وأمر رسوله ﴿ومن يشاقق الله فإن الله شديد العقاب﴾ أي ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله بالكفر والعناد فإن عذاب الله شديد له ﴿ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار﴾ أي ذلكم العقاب فذوقوه يا معشر الكفار في الدنيا ، مع أن لكم العقاب الآجل في الآخرة وهو عذاب النار ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً﴾ أي إذا لقيتم أعداءكم الكفار مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون زحفاً ﴿فلا تولوهم الأدبار﴾ أي فلا تنهزموا أمامهم بل اثبتوا واصبروا ﴿ومن يولهم يومئذٍ دبره﴾ أي ومن يولهم يوم اللقاء ظهره منهزماً ﴿إلا متحرفاً لقتال﴾ أي إلا في حال التوجه إلى قتال طائفة أخرى ، أو بالفر للكرِّ بأن يخيِّل إلى عدوه أنه منهزم ليغرَّه مكيدة وهو من باب « الحرب خدعة » ﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾ أي منضماً إلى جماعة المسلمين يستنجد بهم ﴿فقد باء بغضبٍ من الله﴾ أي فقد رجع بسخطٍ عظيم ﴿ومأواه جهنم﴾ أي مقره ومسكنه الذي يأوي إليه نار جهنم ﴿وبئس المصير﴾ أي بئس المرجع والمآل ﴿فلم تقتلوهم ولكنَّ الله قتلهم﴾ أي فلم تقتلوهم أيها المسلمون ببدر بقوتكم وقدرتكم ، ولكنَّ الله قتلهم بنصركم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم ﴿وما رميتَ إذْ رميتَ﴾ أي وما رميت في الحقيقة أنت يا محمد أعين القوم بقبضةٍ من تراب لأن كفاً من تراب لا يملأ عيون الجيش الكبير قال ابن عباس : أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين وقال : شاهت الوجوه ، فلم يبق أحد منهم إلا أصاب عينيه ومنخريه من تلك الرمية فولوا مدبرين[2] ﴿ولكنَّ الله رمى﴾ أي بإيصال ذلك إليهم فالأمر في الحقيقة من الله ﴿وليبْلي المؤمنين منه بلاءً حسناً﴾ أي فعل ذلك ليقهر الكافرين ويُنعم على المؤمنين بالأجر والنصر والغنيمة ﴿إن الله سميع عليم﴾ أي سميع لأقوالهم عليم بنياتهم وأحوالهم ﴿ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ أي ذلك[3] الذي حدث من قتل المشركين ونصر المؤمنين حق ، والغرض منه إضعاف وتوهين كيد الكافرين حتى لا تقوم لهم قائمة ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ هذا خطاب

(١) التسهيل ٢/٦٢ . (٢) الطبري ١٣/٤٤٣ . (٣) ذلكم مبتدأ حذف خبره تقديره : ذلكم الذي حدث حق .

﴿الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

لكفار قريش أي إن تطلبوا يا معشر الكفار الفتح والنصر على المؤمنين فقد جاءكم الفتح وهو الهزيمة والقهر ، وهذا على سبيل التهكم بهم قال الطبري في رواية الزهري : قال أبو جهل يوم بدر : اللهم أينا كان أفجر ، وأقطع للرحم ، فأحِنْه اليوم ـ أي أهلكه ـ فأنزل الله ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ فكان أبو جهل هو المستفتح ﴿وإن تنتهوا فهو خيرٌ لكم﴾ أي وإن تكفّوا يا معشر قريش عن حرب الرسول ومعاداته ، وعن الكفر بالله ورسوله فهو خير لكم في دنياكم وآخرتكم ﴿وإن تعودوا نعدْ﴾ أي وإن تعودوا لحربه وقتاله نعد لنصره عليكم ﴿ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت﴾ أي لن تدفع عنكم جماعتكم التي تستنجدون بها شيئاً من عذاب الدنيا مهما كثر الأعوان والأنصار ﴿وأن الله مع المؤمنين﴾ أي لأن الله سبحانه مع المؤمنين بالنصر والعون والتأييد ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله﴾ أي دوموا على طاعة الله وطاعة رسوله يدم لكم العز الذي حصل ببدر ﴿ولا تولَّوا عنه﴾ أي لا تعرضوا عنه بمخالفة أمره وأصله تتولوا حذفت منه إحدى التاءين ﴿وأنتم تسمعون﴾ أي تسمعون القرآن والمواعظ ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ أي لا تكونوا كالكفار الذين سمعوا بآذانهم دون قلوبهم ، فسماعهم كلا سماعٍ لأن الغرض من السماع التدبر والاتعاظ ﴿إن شرَّ الدواب عند الله﴾ أي شرَّ الخلق وشرَّ البهائم التي تدبُّ على وجه الأرض ﴿الصمُّ البكم﴾ أي الصمُّ الذين لا يسمعون الحق ، البكم أي الخرس الذين لا ينطقون به ﴿الذين لا يعقلون﴾ أي الذين فقدوا العقل الذي يميز به المرء بين الخير والشر ، نزلت في جماعة من بني عبد الدار كانوا يقولون : نحن صمٌّ بكمٌ عما جاء به محمد ، وتوجهوا لقتال الرسول ﷺ مع أبي جهل ، وفي الآية غاية الذم للكافرين بأنهم أشرُّ من الكلب والخنزير والحمير ، لأنهم لم يستفيدوا من حواسهم فصاروا أخسَّ من كل خسيس ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾ أي لو علم الله فيهم شيئاً من الخير لأسمعهم سماع تفهم وتدبر ﴿ولو أسمعهم لتولَّوا وهم معرضون﴾ أي ولو فُرض أن الله أسمعهم ـ وقد علم أن لا خير فيهم ـ لتولوا وهم معرضون عنه جحوداً وعناداً ، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على عدم إيمان الكافرين .

البَلاَغَة : ١ ـ ﴿أولئك هم المؤمنون﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب لعلو رتبتهم وبعد منزلتهم في الشرف .

٢ ـ ﴿لهم درجات عند ربهم﴾ استعار الدرجات للمراتب الرفيعة والمنازل العالية في الجنة .

٣ ـ ﴿كأنما يساقون الى الموت﴾ التشبيه هنا تمثيلي .
٤ ـ ﴿أن يحق الحق﴾ بينهما جناس الاشتقاق .
٥ ـ ﴿ذات الشوكة﴾ استعيرت الشوكة للسلاح بجامع الشدة والحدّة بينهما .
٦ ـ ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ كناية عن استئصالهم بالهلاك .
٧ ـ ﴿إذ تستغيثون﴾ صيغة المضارع لاستحضار صورتها الغريبة في الذهن .
٨ ـ ﴿وينزّل عليكم من السماء ماء﴾ تقديم الجار والمجرور على المفعول به للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر .
٩ ـ ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ الخطاب للمشركين على سبيل التهكم كقوله ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ .

١٠ ـ ﴿إن شرّ الدواب عند الله﴾ شبّه الكفار بالبهائم بل جعلهم شراً منها . وذلك منتهى البلاغة ونهاية الإعجاز ، إذ أن الكافر لا يسمع الحق والبهائم لا تسمع ، ولا ينطق به والبهائم لا تنطق ، ويأكل والبهائم تأكل . بقي أنه يضر والبهائم لا تضرُّ فكيف لا يكون شراً منها ؟

تنبيه : ذكر تعالى في هذه السورة أنه أمدَّ المؤمنين بألف من الملائكة ، وذكر في سورة آل عمران أنه أمدَّهم بثلاثة آلاف ، ولا تعارض بين الآيات فإنه تعالى ذكر هنا لفظ ﴿مردفين﴾ ومعناه متتابعين فأمدهم أولاً بألف ثم بثلاثة آلاف والله الموفق .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا للهِ وللرسول . . إلى . . نعم المولى ونعم النصير﴾ من آية (٢٤) إلى نهاية آية (٤٠) .

المناسبة : لما ذكر تعالى الكافرين ، وشبّههم بالأنعام السارحة لأنهم أعرضوا عن قبول دعوة الله ، أمر المؤمنين هنا بالاستجابة لله والرسول ، وقبول دعوته التي فيها حياة القلوب ، وبها السعادة الكاملة في الدنيا والآخرة .

اللغة : ﴿مكاء﴾ المكاء : الصفير قال أبو عبيدة : والكثير في الأصوات أن تكون على فعال كالصراخ والخوار والدُّعاء والنباح[1] ﴿تصدية﴾ التصدية : التصفيق يقال : صدى تصدية إذا صفق بيديه وأصله من الصَّدى وهو الصوت الذي يرجع من الجبل ﴿فيركمه﴾ الركم : الجمع قال الليث : هو أن تجمع الشيء فوق الشيء حتى تجعله ركاماً مركوماً كركام الرمل والسحاب[2] ﴿سلف﴾ مضى ﴿سنة الأولين﴾ عادة الله وسنته في إهلاك المكذبين من الأمم السالفة ﴿مولاكم﴾ ناصركم ومعينكم .

سبب النزول : أخرج ابن جرير عن الزهري أن رسول الله ﷺ لما حاصر يهود بني قريظة طلبوا الصلح فأمرهم أن ينزلوا على حكم « سعد بن معاذ » فقالوا : أرسل لنا « أبا لبابة » فبعثه رسول الله ﷺ

(١) البحر ٤/ ٤٧٤ . (٢) نفس المرجع ٤/ ٤٧٤ .

إليهم فقالوا : يا أبا لبابة ما ترى ؟ أننزل على حكم سعد ؟ فأشار إلى حلقه يعني أنه الذبح ، قال أبو لبابة : والله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله فقال : لا والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليَّ فنزلت الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول . .﴾ الآية ثم نزلت توبته[1] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ أي أجيبوا دعاء رسوله إذا دعاكم للإيمان الذي به تحيا النفوس ، وبه تحيون الحياة الأبدية قال قتادة : هو القرآن فيه الحياة ، والثقة ، والنجاة ، والعصمة في الدنيا والآخرة[2] ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ أي أنه تعالى المتصرف في جميع الأشياء ، يصرِّف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها ، فيفسخ عزائمه ، ويغيِّر مقاصده ، ويلهمه رشده ، أو يُزيغ قلبه عن الصراط السوي ، وفي الحديث : (يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك) قال ابن عباس : يحول بين المؤمن والكفر ، وبين الكافر والإيمان[3] قال أبو حيان : وفي ذلك حضٌ على المراقبة ، والخوف من الله تعالى والمبادرة إلى الاستجابة له جلَّ وعلا[4] ﴿وأنه إليه تحشرون﴾ أي وأنه سبحانه إليه مرجعكم ومصيركم فيجازيكم بأعمالكم ﴿واتقوا فتنةً لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾ أي احذروا بطش الله وانتقامه إن عصيتم أمره واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة بل تعم الجميع ، وتصل إلى الصالح والطالح ، لأن الظالم يهلك بظلمه وعصيانه ، وغير الظالم يهلك لعدم منعه وسكوته عليه وفي الحديث (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعمهم الله بعذابٍ من عنده)[5] قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألاَّ يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب ، فيصيب الظالم وغير الظالم[6] ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ وهذا وعيد شديد أي شديد العذاب لمن عصاه ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ أي اذكروا نعمة الله عليكم وقت أن كنتم قلة أذلة يستضعفكم الكفار في أرض مكة فيفتنونكم عن دينكم وينالونكم بالأذى والمكروه ﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ أي تخافون المشركين أن يختطفوكم بالقتل والسلب ، والخطف : الأخذ بسرعة ﴿فآواكم﴾ أي جعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم وهو المدينة المنورة ﴿وأيدكم بنصره﴾ أي أعانكم وقواكم يوم بدر بنصره

---

(١) روح المعاني للألوسي ٩/ ١٩٥ . (٢) الطبري ١٣/ ٤٦٨ . (٣) روح المعاني ٩/ ١٩١ .
(٤) البحر ٤/ ٤٨١ (٥) رواه البخاري . (٦) حاشية الصاوي ٢/ ١٢٢ .

مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ

المؤزر حتى هزمتموهم ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أي منحكم غنائمهم حلالاً طيبة ولم تكن تحل لأحد من قبل ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي لتشكروا الله على هذه النعم الجليلة ، والغرض التذكير بالنعمة فإنهم كانوا قبل ظهور الرسول ﷺ في غاية القلة والذلة ، وبعد ظهوره صاروا في غاية العزة والرفعة ، فعليهم أن يطيعوا الله ويشكروه على هذه النعمة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول﴾ أي لا تخونوا دينكم ورسولكم بإطلاع المشركين على أسرار المؤمنين ﴿وتخونوا أماناتكم﴾ أي ما ائتمنكم عليه من التكاليف الشرعية كقوله ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال . . .﴾ الآية قال ابن عباس : خيانة الله سبحانه بترك فرائضه ، والرسول ﷺ بترك سنته وارتكاب معصيته ، والأمانات : الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد[1] ﴿وأنتم تعلمون﴾ أي تعلمون أنه خيانة وتعرفون تبعة ذلك ووباله ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ أي محنة من الله ليختبركم كيف تحافظون معها على حدوده قال الإمام الفخر : وإنما كانت فتنة لأنها تشغل القلب بالدنيا ، وتصير حجاباً عن خدمة المولى[2] ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ أي ثوابه وعطاؤه خير لكم من الأموال والأولاد فاحرصوا على طاعة الله ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ أي إن أطعتم الله واجتنبتم معاصيه يجعل لكم هداية ونوراً في قلوبكم ، تفرقون به بين الحق والباطل كقوله ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ وفي الآية دليل على أن التقوى تنور القلب ، وتشرح الصدر ، وتزيد في العلم والمعرفة ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ أي يمحو عنكم ما سلف من ذنوبكم ﴿ويغفر لكم﴾ أي يسترها عليكم فلا يؤاخذكم بها ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ أي واسع الفضل عظيم العطاء ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ هذا تذكير بنعمة خاصة على الرسول ﷺ بعد تذكير المؤمنين بالنعمة العامة عليهم والمعنى : اذكر يا محمد حين تآمر عليك المشركون في دار الندوة ﴿ليثبتوك﴾ أي يحبسوك ﴿أو يقتلوك﴾ أي بالسيف ضربة رجل واحد ليتفرق دمه ﷺ بين القبائل ﴿أو يخرجوك﴾ أي من مكة ﴿ويمكرون ويمكر الله﴾ أي يحتالون ويتآمرون عليك يا محمد ويدبر لك ربك ما يبطل مكرهم ويفضح أمرهم ﴿والله خير الماكرين﴾ أي مكره تعالى أنفذ من مكرهم وأبلغ تأثيراً قال الطبري في روايته عن ابن عباس : إن نفراً من أشراف قريش اجتمعوا في دار الندوة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال شيخ من العرب ،

---

(١) روح المعاني ٩/١٩٥ . (٢) التفسير الكبير ١٥/١٥٢ .

ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ

سمعت باجتماعكم فأردت ان أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح قالوا : أجل فادخل ، فقال انظروا في شأن هذا الرجل - يعني محمداً ﷺ - فقال قائل: احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك ، فصرخ عدو الله وقال : والله ما هذا لكم برأي ، فليوشكن أن يثب أصحابه عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم ، فقال قائل : أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه فإنه إذا خرج فلن يضركم ما صنع وأين وقع ، فقال الشيخ المذكور: والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حلاوة قوله ، وطلاقة لسانه ، وأخذه القلوب بحديثه ؟ والله لئن فعلتم لتجتمعن عليكم العرب حتى يخرجوكم من بلادكم ويقتلوا أشرافكم ، قالوا صدق فانظروا رأياً غير هذا ، فقال أبو جهل : والله لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره ! قالوا : وما هو ؟ قال نأخذ من كل قبيلة غلاماً شاباً جلداً ، ونعطي كل واحد سيفاً صارماً ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، ويتفرق دمه في القبائل كلها ، ولا أظن بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلها فيقبلون الدية ونستريح منه ونقطع عنا أذاه ، فصرخ عدو الله إبليس : هذا والله الرأي لا أرى غيره ، فتفرقوا على ذلك فأتى جبريل النبي ﷺ فأخبره وأمره أن لا يبيت في مضجعه ، وأذن له بالهجرة ، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك ، أو يخرجوك . .﴾[1] الآية ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا﴾ أي وإذا قرئت عليهم آيات القرآن المبين ﴿قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ أي قالوا مكابرة وعناداً : قد سمعنا هذا الكلام ولو أردنا لقلنا مثله ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي ما هذا القرآن الذي تتلوه علينا إلا أكاذيب وأباطيل وحكايات الأمم السابقة سطروها وليس كلام الله تعالى قال أبو السعود : وهذا غاية المكابرة ونهاية العناد ، كيف لا ، ولو استطاعوا لما تأخروا ! فما الذي كان يمنعهم وقد تحداهم عشر سنين ؟ وقرعوا على العجز ، ثم قورعوا بالسيف فلم يعارضوه ، مع أنفتهم ، وفرط استنكافهم أن يغلبوا لا سيما في باب البيان[2] ؟! ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك﴾ أي إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً من عندك ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ أي أنزل علينا حاصباً وحجارة من السماء كما أنزلتها على قوم لوط ﴿أو ائتنا بعذاب أليم﴾ أي بعذاب مؤلم أهلكنا به ، وهذا تهكم منهم واستهزاء قال ابن كثير : وهذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم ، وكان الأولى لهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه ، ولكنهم استعجلوا العقوبة والعذاب لسفههم[3] ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ هذا جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للسبب الموجب لإمهالهم أي إنهم مستحقون للعذاب ولكنه لا يعذبهم وأنت فيهم إكراماً لك يا محمد ، فقد جرت سنة الله وحكمته ألا يعذب أمة ونبيها بين ظهرانيها قال ابن

(١) الطبري ١٣/ ٤٩٥ . (٢) أبو السعود ٢/ ٢٣٧ . (٣) المختصر ٢/ ١٠١ .

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ﴾

عباس : لم تعذب أمة قط ونبيها فيها[1] ، والمراد بالعذاب عذاب الاستئصال ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ أي وما كان الله ليعذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون الله ، وهو إشارة الى استغفار من بقي بين أظهرهم من المسلمين المستضعفين قال ابن عباس : كان فيهم أمانان : نبي الله ﷺ ، والاستغفار ، أما النبي فقد مضى ، وأما الاستغفار فهو باق إلى يوم القيامة[2] ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ أي شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم؟ وكيف لا يعذبون وهم على ما هم عليه من العتو والضلال ؟ ﴿وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ أي وحالهم الصد عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية ، وكما اضطروه والمؤمنين إلى الهجرة من مكة ، ﴿وما كانوا أولياءه﴾ أي ما كانوا أهلاً لولاية المسجد الحرام مع إشراكهم ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾ أي إنما يستأهل ولايته من كان براً تقياً ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ أي ولكن أكثرهم جهلة سفلة فقد كانوا يقولون : نحن ولاة البيت والحرم ، نصد من نشاء ، وندخل من نشاء . . والغرض من الآية بيان استحقاقهم لعذاب الاستئصال بسبب جرائمهم الشنيعة ، ولكن الله رفعه عنهم إكراماً لرسوله عليه السلام ، ولاستغفار المسلمين المستضعفين ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية﴾ هذا من جملة قبائحهم أي ما كانت عبادة المشركين وصلاتهم عند البيت الحرام إلا تصفيراً وتصفيقاً ، وكانوا يفعلونهما إذا صلى المسلمون ليخلطوا عليهم صلاتهم ، والمعنى أنهم وضعوا مكان الصلاة والتقرب إلى الله التصفير والتصفيق قال ابن عباس : كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراةً يصفرون ويصفقون[3] ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي فذوقوا عذاب القتل والأسر بسبب كفركم وأفعالكم القبيحة ، وهو إشارة إلى ما حصل لهم يوم بدر ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ أي يصرفون أموالهم ويبذلونها لمنع الناس عن الدخول في دين الإسلام ، ولحرب محمد عليه السلام ، قال الطبري : لما أصيب كفار قريش يوم بدر ، ورجع فلُّهم إلى مكة قالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتَرَكم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا فنزلت الآية[4] ﴿فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة﴾ أي فسينفقون هذه الأموال ثم تصير ندامة عليهم ، لأن أموالهم تذهب ولا يظفرون بما كانوا يطمعون من إطفاء نور الله وإعلاء كلمة الكفر ﴿ثم يُغلبون﴾ إخبار بالغيب أي ثم نهايتهم الهزيمة والاندحار ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾

(١) البحر ٤/ ٤٨٩ . (٢) الرازي ١٥/ ١٥٨ . (٣) الطبري ١٣/ ٥٢٤ . (٤) نفس المرجع ١٣/ ٥٣٢ .

﴿ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ أي والذين ماتوا على الكفر منهم يساقون إلى جهنم ، فأعظم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك **﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾** أي ليفرق الله بين جند الرحمن وجند الشيطان ، ويفصل بين المؤمنين الأبرار والكفرة الأشرار ، والمراد بالخبيث والطيب الكافر والمؤمن **﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض﴾** أي يجعل الكفار بعضهم فوق بعض **﴿فيركمه جميعاً﴾** أي يجعلهم كالركام متراكماً بعضهم فوق بعض لشدة الازدحام **﴿فيجعله في جهنم﴾** أي فيقذف بهم في نار جهنم **﴿أولئك هم الخاسرون﴾** أي الكاملون في الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم ، ثم دعاهم تعالى إلى التوبة والإنابة ، وحذرهم من الإصرار على الكفر والضلال فقال سبحانه **﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾** أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك ، إن ينتهوا عن الكفر ويؤمنوا بالله ويتركوا قتالك وقتال المؤمنين ، يغفر لهم ما قد سلف من الذنوب والآثام **﴿وإن يعودوا فقد مضت سنَّتُ الأولين﴾** أي وإن عادوا إلى قتالك وتكذيبك فقد مضت سنتي في تدمير وإهلاك المكذبين لأنبيائي ، فكذلك نفعل بهم ، وهذا وعيد شديد لهم بالدمار إن لم يقلعوا عن المكابرة والعناد **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾** أي قاتلوا يا معشر المؤمنين أعداءكم المشركين حتى لا يكون شرك ولا يعبد إلا الله وحده ، قال ابن عباس : الفتنة : الشرك ، أي حتى لا يبقى مشرك على وجه الأرض وقال ابن جريج : حتى لا يفتن مؤمن عن دينه[1] **﴿ويكون الدين كله لله﴾** أي تضمحل الأديان الباطلة ولا يبقى إلا دين الإسلام قال الألوسي : واضمحلالها إما بهلاك أهلها جميعاً ، أو برجوعهم عنها خشية القتل[2] ، لقوله عليه السلام (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) **﴿فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾** أي فإن انتهوا عن الكفر وأسلموا فإن الله مطلع على قلوبهم ، يثيبهم على توبتهم وإسلامهم **﴿وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم﴾** أي وإن لم ينتهوا عن كفرهم وأعرضوا عن الإيمان فاعلموا يا معشر المؤمنين أن الله ناصركم ومعينكم عليهم ، فثقوا بنصرته وولايته ولا تبالوا بمعاداتهم لكم **﴿نعم المولى ونعم النصير﴾** أي نعم الله أن يكون مولاكم فإنه لا يضيع من تولاه ، ونعم النصير لكم فإنه لا يُغلب من نصره الله .

البَلاَغَة : ١ - **﴿يحول بين المرء وقلبه﴾** الكلام من باب الاستعارة التمثيلية ، شبه تمكنه تعالى من

---

(١) الطبري ١٣/٥٣٨ . (٢) روح المعاني ٩/٢٠٧ .

قلوب العباد وتصريفها كما يشاء ، بمن يحول بين الشيء والشيء ، وهي استعارة لطيفة .

٢ ـ ﴿وإذ يمكر بك﴾ صيغة المضارع لاستحضار الصورة العجيبة من تآمر المشركين على صاحب الرسالة عليه السلام .

٣ ـ ﴿ويمكر الله﴾ إضافة المكر إليه تعالى على طريق « المشاكلة » بمعنى إحباط ما دبروا من كيد ومكر ، والمشاكلة ان يتفق اللفظ ويختلف المعنى وقد تقدم[1] .

٤ ـ ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية﴾ تأمل التعبير الرائع في أسلوب القرآن حيث وضعوا المكاء والتصدية « التصفير والتصفيق » موضع الصلاة التي ينبغي ان تؤدى عند البيت فكانوا كالأنعام التي لا تفقه معنى العبادة ، ولا تعرف حرمة بيوت الله ، وهو على حد قول القائل : « تحية بينهم ضرب وجيع » .

٥ ـ ﴿الخبيث من الطيب﴾ كناية عن المؤمن والكافر وبين لفظ « الخبيث » و « الطيب » طباق وهو من المحسنات البديعية .

تنبيه : روى الحافظ ابن كثير عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال : كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت ، ثم أتيته فقال : ما منعك أن تأتيني ؟ ألم يقل الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ ؟ ثم قال : لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج ، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له ذلك فقال ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته[2] .

لطيفة : حكي عن معاوية رضي الله عنه أنه قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملّكوا عليهم امرأة ! فقال الرجل : أجهل من قومي قومك حين قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ ولم يقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، فسكت معاوية رضي الله عنه .

***

قال الله تعالى : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء . . إلى . . يوفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون﴾

من آية (٤١) إلى نهاية آية (٦٠) .

المناسبة : لما أمر تعالى بقتال المشركين ، وذكر فيما تقدم طرفاً من غزوة بدر ، وكان لا بد بعد القتال من أن يغنم المجاهدون الغنائم ـ وهي أموال المشركين ـ على طريق القهر والظفر ، ذكر سبحانه هنا حكم الغنائم وكيفية قسمتها ، ثم سرد بقية الأحداث الهامة في تلك الغزوة المجيدة « غزوة بدر » .

---

(١) انظر توضيح ذلك عند قوله تعالى ﴿الله يستهزىء بهم﴾ من سورة البقرة . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٩٥ .

اللغــة : ﴿العدوة الدنيا﴾ عدوة الوادي : جانبه وشفيره ، والدنيا تأنيث الأدنى أي الأقرب والمراد ما يلي جانب المدينة ﴿العدوى القصوى﴾ القصوى : تأنيث الأقصى أي الأبعد ، وكل شيء تنحى عن شيء فقد قصا والمراد ما يلي جانب مكة ﴿نكص﴾ النكوص : الإحجام عن الشيء ﴿كدأب﴾ الدأب : العادة ، وأصله في اللغة إدامة العمل يقال : فلان يدأب في كذا أي يدوم عليه ويواظب ثم سميت العادة دأباً لأن الإنسان مداوم على عادته ﴿تثقفنهم﴾ قال الليث : يقال ثقفنا فلاناً في موضع كذا أي أخذناه وظفرنا به[١] ﴿فشرد﴾ التشريد : التفريق والتبديد يقال : شردت القوم إذا قاتلتهم وطردتهم عنها حتى فارقوها .

* ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن

التفسير : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ أي اعلموا أيها المؤمنون أنما غنمتوه من أموال المشركين في الحرب سواء كان قليلاً أو كثيراً ﴿فأن لله خمسه﴾ قال الحسن : هذا مفتاح كلام ، الدنيا والآخرة لله[٢] أي أن ذكر اسم الله على جهة التبرك والتعظيم كقوله ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ قال المفسرون : تقسم الغنيمة خمسة أقسام ، فيعطى الخمس لمن ذكر الله تعالى في هذه الآية ، والباقي يوزع على الغانمين ﴿وللرسول﴾ أي سهم من الخمس يعطى للرسول ﷺ ﴿ولذي القربى﴾ أي قرابة الرسول ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب ﴿واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ أي ولهؤلاء الأصناف من اليتامى الذين مات آباؤهم ، والفقراء من ذوي الحاجة ، والمنقطع في سفره من المسلمين ﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ جواب الشرط محذوف تقديره : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن هذا هو حكم الله في الغنائم فامتثلوا أمره بطاعته ﴿وما أنزلنا على عبدنا﴾ أي وبما أنزلنا على محمد ﷺ ﴿يوم الفرقان﴾ أي يوم بدر لأن الله فرق به بين الحق والباطل ﴿يوم التقى الجمعان﴾ أي جمع المؤمنين وجمع الكافرين ، والتقى فيه جند الرحمن بجند الشيطان ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي قادر لا يعجزه شيء ، ومنه نصركم مع قلَّتكم وكثرتهم ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا﴾ هذا تصوير للمعركة أي وقت كنتم يا معشر المؤمنين بجانب الوادي القريب الى المدينة ﴿وهم بالعدوة القصوى﴾ أي وأعداؤكم المشركون بجانب الوادي الأبعد عن المدينة ﴿والركب أسفل منكم﴾ أي والعير التي فيها تجارة قريش في مكان أسفل من مكانكم فيما يلي ساحل البحر ﴿ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد﴾ أي ولو تواعدتم أنتم والمشركون على القتال لاختلفتم له ولكن الله بحكمته يسر وتمم ذلك قال كعب بن مالك : إنما خرج

(١) الرازي ١٥/ ١٨٩ . (٢) القرطبي ٨/ ١٠ .

لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ

رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد[1] قال الرازي : المعنى لو تواعدتم أنتم وأهل مكة على القتال لخالف بعضكم بعضاً لقلتكم وكثرتهم[2] ، ﴿ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ أي ولكن جمع بينكم على غير ميعاد ليقضي الله ما أراد بقدرته ، من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله ، فكان أمراً متحققاً واقعاً لا محالة قال أبو السعود : والغرض من الآية أن يتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ، ليس إلا صنعاً من الله عز وجل خارقاً للعادات ، فيزدادوا إيماناً وشكراً ، وتطمئن نفوسهم بفرض الخمس[3] ﴿ليهلك من هلك عن بينة﴾ أي فعل ذلك تعالى ليكفر من كفر عن وضوح وبيان ﴿ويحيا من حي عن بينة﴾ أي ويؤمن من آمن عن وضوح وبيان[4] ، فإن وقعة بدر من الآيات الباهرات على نصر الله لأوليائه وخذلانه لأعدائه ﴿وإن الله لسميع عليم﴾ أي سميع لأقوال العباد عليم بنياتهم ﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلاً﴾ أي اذكر يا محمد حين أراك الله في المنام أعداءك قلة ، فأخبرت بها أصحابك حتى قويت نفوسهم وتشجعوا على حربهم قال مجاهد : أراه الله إياهم في منامه قليلاً ، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لهم ﴿ولو أراكهم كثيراً لفشلتم﴾ أي ولو أراك ربك عدوك كثيراً لجبن أصحابك ولم يقدروا على حرب القوم ، وانظر إلى محاسن القرآن فإنه لم يسند الفشل إليه ﷺ لأنه معصوم بل قال ﴿لفشلتم﴾ إشارة إلى أصحابه ﴿ولتنازعتم في الأمر﴾ أي ولاختلفتم يا معشر الصحابة في أمر قتالهم ﴿ولكنَّ الله سلم﴾ أي ولكن الله أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي عليم بما في القلوب يعلم ما يغيّر أحوالها من الشجاعة والجبن ، والصبر والجزع ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم﴾ هذه الرؤية باليقظة لا بالمنام أي واذكروا يا معشر المؤمنين حين التقيتم في المعركة فقلل الله عدوكم في أعينكم لتزداد جرأتكم عليهم ، وقلّلكم في أعينهم حتى لا يستعدوا ويتأهبوا لكم قال ابن مسعود : لقد قُلّلوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل : أتراهم يكونون مائة[5] ؟ وهذا قبل التحام الحرب فلما التحم القتال كثر الله المؤمنين في أعين الكفار فبُهتوا وهابوا ، وفُلّت شوكتهم ، ورأوا ما لم يكن في الحسبان ، وهذا من عظائم آيات الله في تلك الغزوة ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ أي فعل ذلك فجرّأ المؤمنين على الكافرين ، والكافرين على المؤمنين ، لتقع الحرب ويلتحم القتال ، وينصر الله جنده ويهزم الباطل وحزبه ، وتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين

(١) الطبري ١٣/ ٥٦٦ . (٢) تفسير الرازي ١٥/ ١٦٧ . (٣) أبو السعود ٢/ ٢٤٠ . (٤) ذهب الطبري الى أن المعنى : ليموت من مات من خلقه عن حجة لله قد أثبتت له وقطعت عذره ، وليعيش من عاش منهم عن حجة لله قد أثبتت له وظهرت لعينه فعلمها وما ذهبنا اليه هو اختيار الجلالين وهو أوضح ويؤ يده ﴿لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين﴾ . (٥) الطبري ١٣/ ٥٧٣ .

مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ

كفروا السفلى ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي مصير الأمور كلها إلى الله يصرّفها كيف يريد ، لا معقب لحكمه وهو الحكيم المجيد ، ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا﴾ هذا إرشاد إلى سبيل النصر في مبارزة الأعداء أي إذا لقيتم جماعة من الكفرة فاثبتوا لقتالهم ولا تنهزموا ﴿واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ أي أكثروا من ذكر الله بألسنتكم لتستمطروا نصره وعونه وتفوزوا بالظفر عليهم ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ أي في جميع أقوالكم وأفعالكم ولا تخالفوا أمرهما في شيء ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا﴾ أي ولا تختلفوا فيما بينكم فتضعفوا وتجبنوا عن لقاء عدوكم ﴿وتذهب ريحكم﴾ أي تذهب قوتكم وبأسكم ، ويدخلكم الوهن والخور ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ أي واصبروا على شدائد الحرب وأهوالها ، فإن الله مع الصابرين بالنصر والعون ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس﴾ أي لا تكونوا ككفار قريش حين خرجوا لبدر عتواً وتكبراً ، وطلباً للفخر والثناء ، والآية إشارة إلى قول أبي جهل : والله لا نرجع حتى نَرِد بدراً ، فنشرب فيها الخمور وننحر الجزور ، وتعزف علينا القيان ـ المغنيات ـ وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبداً[1] قال الطبري : فسقوا مكان الخمر كؤوس المنايا[2] ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ أي ويمنعون الناس عن الدخول في الإسلام ﴿والله بما يعملون محيط﴾ أي وهو سبحانه عالم بجميع ذلك وسيجازيهم عليه ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ أي واذكر وقت أن حسَّن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة من الشرك وعبادة الأصنام ، وخروجهم لحرب الرسول عليه السلام ﴿وقال لا غالب لكم اليوم من الناس﴾ أي لن يغلبكم محمد وأصحابه ﴿وإني جارٌ لكم﴾ أي مجير ومعين لكم ﴿فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه﴾ أي فلما تلاقى الفريقان ولى الشيطان هارباً مولياً الأدبار ﴿وقال إني بريء منكم﴾ أي بريء من عهد جواركم ، وهذا مبالغة في الخذلان لهم ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ أي أرى الملائكة نازلين لنصرة المؤمنين وأنتم لا ترون ذلك وفي الحديث (ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ،

(١) ذكر الطبري في روايته عن ابن عباس ان أبا سفيان لما نجا بالعير أرسل الى قريش يقول : ارجعوا فقد سلمت عيركم ونجت تجارتكم فقال أبو جهل اللعين ما قال . (٢) الطبري ١٣/٥٧٨ .

ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن

ولا أدحر ، ولا أحقر ، ولا أغيظ منه في يوم عرفة ، إلا ما رأى يوم بدر ، فإنه رأى جبريل يزع الملائكة)[1] أي يصفها للحرب ﴿إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾ أي إني أخاف الله أن يعذبني لشدة عقابه قال ابن عباس : جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته في صورة « سراقة بن مالك » فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها وجوه المشركين ، فولوا مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس ، فلما رآه ـ وكانت يده في يد رجل من المشركين ـ انتزع يده ثم ولى مدبراً وشيعته ، فقال الرجل : يا سراقة أتزعم أنك لنا جار ؟ فقال : إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله ، وكذب عدو الله فإنه علم أنه لا قوة له ولا منعة وذلك حين رأى الملائكة[2] ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ أي حين قال أهل النفاق الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر لضعف اعتقادهم بالله ﴿غرَّ هؤلاء دينهم﴾ أي اغتر المسلمون بدينهم فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به قال تعالى في جوابهم ﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾ أي ومن يعتمد على الله ويثق به فإن الله ناصره لأن الله عزيز أي غالب لا يذل من استجار به ، حكيم في أفعاله وصنعه ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكةُ﴾ أي لو رأيت وشاهدت أيها المخاطب أو أيها السامع حالتهم ببدر حين تقبض ملائكة العذاب أرواح الكفرة المجرمين ، وجواب ﴿لو﴾ محذوف للتهويل أي لرأيت أمراً فظيعاً وشأناً هائلاً قال أبو حيان : وحذف جواب لو جائز بليغ حذفه في مثل هذا لأنه يدل على التهويل والتعظيم[3] أي لرأيت أمراً فظيعاً لا يكاد يوصف ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ أي تضربهم الملائكة من أمامهم وخلفهم ، على وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ أي ويقولون لهم : ذوقوا يا معشر الفجرة عذاب النار المحرق ، وهذا بشارة لهم بعذاب الآخرة وقيل : كانت معهم أسواط من نار يضربونهم بها فتشتعل جراحاتهم ناراً[4] ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ أي ذلك العذاب بسبب ما كسبتم من الكفر والآثام ﴿وأن الله ليس بظلَّام للعبيد﴾ أي وانه تعالى عادل ليس بذي ظلم لأحد من العباد حتى يعذبه بغير ذنب ، وصيغة ﴿ظلام﴾ ليست للمبالغة وإنما هي للنسب أي ليس منسوباً إلى الظلم فقد انتفى أصل الظلم عنه تعالى فتدبره ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم﴾ أي دأب هؤلاء الكفرة في الإجرام يعني عملهم وطريقهم الذي دأبوا فيه كعمل وطريق آل فرعون ومن تقدمهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود في العناد والتكذيب

(١) رواه مالك في الموطأ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ١١١ . (٣) البحر ٤/ ٥٠٦ . (٤) البيضاوي ص ٢١٥ .

قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ

والكفر والإجرام ﴿كفروا بآيات الله﴾ أي جحدوا ما جاءهم به الرسل من عند الله ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي أهلكهم بكفرهم وتكذيبهم ﴿إن الله قوي شديد العقاب﴾ أي قوي البطش شديد العذاب، لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمةً أنعمها على قوم﴾ أي ذلك الذي حل بهم من العذاب بسبب أن الله عادل في حكمه لا يغير نعمة أنعمها على أحدٍ إلا بسبب ذنبٍ ارتكبه ، وأنه لايبدل النعمة بالنقمة ﴿حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ أي حتى يبدلوا نعمة الله بالكفر والعصيان، كتبديل كفار قريش نعمة الله من الخصب والسعة والأمن والعافية. بالكفر والصد عن سبيل الله وقتال المؤمنين قال السدي : نعمة الله على قريش محمدﷺ فكفروا به وكذبوه ، فنقله الله إلى المدينة وحل بالمشركين العقاب[1] ﴿وأن الله سميع عليم﴾ أي وأنه سبحانه سميع لما يقولون عليم بما يفعلون ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم﴾ كرره لزيادة التشنيع والتوبيخ على إجرامهم أي شأن هؤلاء وحالهم كشأن وحال المكذبين السابقين حيث غيّروا حالهم فغيّر الله نعمته عليهم ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ أي أهلكناهم بسبب ذنوبهم بعضهم بالرجفة ، وبعضهم بالخسف ، وبعضهم بالحجارة ، وبعضهم بالغرق ولهذا قال ﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ أي أغرقنا فرعون وقومه معه ﴿وكلٌّ كانوا ظالمين﴾ أي وكل من الفرق المكذبة كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصي حيث عرّضوها للعذاب ﴿إن شر الدواب عند الله﴾ أي شر من يدب على وجه الأرض في علم الله وحكمه ﴿الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ أي الذين أصروا على الكفر ورسخوا فيه فهم لا يتوقع منهم إيمانٌ لذلك قال ابن عباس : نزلت في بني قريظة من اليهود ، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه عاهدهم رسول اللهﷺ ألا يحاربوه فنقضوا العهد[2] ﴿الذين عاهدت منهم﴾ أي الذين عاهدتهم يا محمد على ألا يعينوا المشركين ﴿ثم ينقضون عهدهم في كل مرة﴾ أي يستمرون على النقض مرة بعد مرة ﴿وهم لا يتقون﴾ أي لا يتقون الله في نقض العهد قال المفسرون : كان رسول اللهﷺ قد عاهد يهود بني قريظة ألا يحاربوه ولا يعاونوا عليه المشركين ، فنقضوا العهد وأعانوا عليه كفار مكة بالسلاح يوم بدر ، ثم قالوا : نسينا

(١) القرطبي ٨/ ٢٩ . (٢) زاد المسير ٣/ ٣٧١ .

مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

وأخطأنا فعاهدهم مرة أخرى فنقضوا العهد ومالئوا الكفار يوم الخندق[1] ﴿فإما تثقفنهم في الحرب﴾ أي فإن تظفر بهم في الحرب ﴿فشرد بهم من خلفهم﴾ أي فاقتلهم ونكل بهم تنكيلاً شديداً يشرد غيرهم من الكفرة المجرمين ﴿لعلهم يذكّرون﴾ أي لعلهم يتعظون بما شاهدوا فيرتدعوا والمعنى : اجعلهم عبرة لغيرهم حتى لا يبقى لهم قوة على محاربتك ﴿وإما تخافن من قوم خيانة﴾ أي وإن أحسست يا محمد من قوم معاهدين خيانة للعهد ونكثاً بأمارات ظاهرة ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾ أي اطرح إليهم عهدهم على بينة ووضوح من الأمر قال النحاس : هذا من معجز ما جاء في القرآن مما لا يوجد في الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه والمعنى: وإما تخافن من قوم - بينك وبينهم عهد - خيانة فانبذ إليهم العهد أي قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم ، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء ، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة وغدراً[2] ﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ وهذا كالتعليل للأمر بنبذ العهد أي لا يحب من ليس عنده وفاء ولا عهد ﴿ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا﴾ أي لا يظنن هؤلاء الكفار الذين أفلتوا يوم بدر من القتل أنهم فاتونا فلا نقدر عليهم ، بل هم في قبضتنا وتحت مشيئتنا وقهرنا ﴿إنهم لا يُعجزون﴾ كلام مستأنف أي إنهم لا يُعجزون ربهم ، بل هو قادر على الانتقام منهم في كل لحظة ، لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ أي أعدوا لقتال أعدائكم جميع أنواع القوة : المادية ، والمعنوية قال الشهاب : وإنما ذكر القوة هنا لأنه لم يكن لهم في بدر استعداد تام ، فنُبهوا على أن النصر من غير استعداد لا يتأتى في كل زمان[3] ﴿ومن رباط الخيل﴾ أي الخيل التي تربط في سبيل الله ﴿تُرهبون به عدو الله وعدوكم﴾ أي تُخيفون بتلك القوة الكفار أعداء الله وأعداءكم ﴿وآخرين من دونهم﴾ أي وترهبون به آخرين غيرهم قال ابن زيد : هم المنافقون وقال مجاهد : هم اليهود من بني قريظة والأول أصح لقوله ﴿لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ أي لا تعلمون ما هم عليه من النفاق ولكن الله يعلمهم ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله﴾ أي وما تنفقوا في الجهاد وفي سائر وجوه الخيرات ﴿يُوفَّ إليكم﴾ أي تُعْطون جزاءه وافياً كاملاً يوم القيامة ﴿وأنتم لا تُظلمون﴾ أي لا تنقصون من ذلك الأجر شيئاً .

البَــلاَغَــة : ١ - ﴿من شيء﴾ التنكير للتقليل .

٢ - ﴿على عبدنا﴾ ذكره ﷺ بلفظ العبودية وإضافته إلى الله للتشريف والتكريم .

(١) الفخر الرازي ١٥/ ١٦٢ . (٢) تفسير القرطبي ٨/ ٣٢ . (٣) محاسن التأويل ٨/ ص ٣٠٢٤ .

٣ - ﴿بالعدوة الدنيا﴾ بين لفظ « الدنيا » و « القصوى » طباق .

٤ - ﴿ليهلك ويحيا﴾ استعار الهلاك والحياة للكفر والإيمان ، وبين « يهلك » و « يحيا » طباقٌ .

٥ - ﴿وتذهب ريحكم﴾ أي تذهب قوتكم وشوكتكم وهو من باب الاستعارة أيضاً .

تنبيه : يأمرنا الله تعالى بإعداد القوة لقتال الأعداء ، وقد جاء التعبير عاماً ﴿من قوة﴾ ليشمل القوة المادية ، والقوة الروحية ، وجميع أسباب القوة ، وكيف لا يطمع العدو بالممالك الإسلامية وهو لا يرى عندنا معامل للأسلحة ، وذخائر للحرب ، بل كلها مما يشتريه المسلمون من بلاد العدو ؟ فلا بد لنا من العودة إلى تعاليم الإسلام إذا ما أردنا حياة العزة والكرامة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها . . إلى . . إن الله بكل شيء عليم﴾ من آية (٦١) إلى آية (٧٥) نهاية السورة الكريمة .

المناسبة : لما أمر الله تعالى بإعداد العدة لإرهاب الأعداء ، أمر هنا بالسلم بشرط العزة والكرامة متى وجد السبيل إليه ، لأن الحرب ضرورة اقتضتها ظروف الحياة لرد العدوان ، وحرية الأديان ، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان، ثم تناولت الآيات الكريمة حكم الأسرى ، وختمت السورة بوجوب مناصرة المؤمنين بعضهم لبعض ، بسبب الولاية الكاملة وأخوة الإيمان .

اللغة : ﴿جنح﴾ مال يقال : جنح الرجل إلى فلان إذا مال إليه وخضع له ، وجنحت الإبل : إذا مالت أعناقها في السير ، ومنه قيل للأضلاع جوانح ﴿السلم﴾ المسالمة والصلح قال الزمخشري : وهي تؤنث تأنيث ضدها وهي الحرب قال الشاعر :

السِّلم تأخذ منها ما رضيت به ... والحرب تكفيك من أنفاسها جُرَع[١]

﴿حرّض﴾ التحريض : الحث على الشيء وتحريك الهمة نحوه كالتحضيض ﴿يثخن﴾ قال الواحدي : الإثخان في كل شيء عبارة عن قوته وشدته ، يقال : قد أثخنه المرض إذا اشتدت قوته عليه ، وأثخنته الجراح . والثخانة : الغلظة ، والمراد بالإثخان هنا المبالغة في القتل والجراحات[٢] .

سبب النزول : أ - عن عمر رضي الله عنه قال: لما هزم الله المشركين يوم بدر، وقتل منهم سبعون وأسر منهم سبعون ، استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر : يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة ، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً ، فقال رسول الله : ما ترى يا ابن الخطاب ! قلت : والله ما أرى ما رأى أبو

(١) الكشاف ٢/٢٣٣ . (٢) الفخر الرازي ١٥/٢٠١ .

بكر ، ولكن أرى أن تمكنني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة على المشركين ، هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان ، فقلت يا رسول الله : أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاءً بكيت ، وإن لم أجد بكاءً تباكيت ، فقال ﷺ : (أبكي للذي عرض علي أصحابك من الفداء ، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة) لشجرة قريبة فأنزل الله ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض . . ﴾[1] الآية .

ب ـ لما وقع العباس عم النبي ﷺ في الأسر كان معه عشرون أوقية من ذهب ، فلم تحسب له من فدائه ، وكلف أن يفدي ابني أخيه فأدى عنهما ثمانين أوقية من ذهب ، وقال النبي ﷺ (أضعفوا على العباس الفداء) فأخذوا منه ثمانين أوقية فقال العباس لرسول الله ﷺ : لقد تركتني أتكفَّف قريشاً ما بقيت ، فقال له ﷺ : وأين الذهب الذي تركته عند أم الفضل ؟ فقال : أي الذهب ؟ فقال : إنك قلت لها : إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا ! فإن حدث بي حدث فهو لك ولولدك ، فقال يا ابن أخي : من أخبرك بهذا ؟ قال : الله أخبرني فقال العباس : أشهد أنك صادق ، وما علمت أنك رسول الله قبل اليوم ، وأمر ابني أخيه فأسلما ففيهما نزلت ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى . . ﴾ الآية[2] .

* ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ

التفسير : ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ أي إن مالوا إلى الصلح والمهادنة فمل إليه وأجبهم إلى ما طلبوا إن كان فيه مصلحة ﴿وتوكل على الله﴾ أي فوض الأمر إلى الله ليكون عوناً لك على السلامة ﴿إنه هو السميع العليم﴾ أي هو سبحانه السميع لأقوالهم العليم بنياتهم ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك﴾ أي وإن أرادوا بالصلح خداعك ليستعدوا لك ﴿فإن حسبك الله﴾ أي فإن الله يكفيك وهو حسبك ، ثم ذكره بنعمته عليه فقال ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ أي قواك وأعانك بنصره وشد أزرك بالمؤمنين قال ابن عباس : يعني الأنصار ﴿وألف بين قلوبهم﴾ أي جمع بين قلوبهم على ما كان بينهم من العداوة والبغضاء ، فأبدلهم بالعداوة حباً ، وبالتباعد قرباً قال القرطبي : وكان تأليف القلوب مع العصبيّة الشديدة في العرب من آيات النبي ﷺ ومعجزاته ،لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة فيقاتل عليها ، وكانوا أشد خلق الله حمية ، فألف الله بينهم بالإيمان ، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين[3] ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾ أي لو أنفقت في إصلاح ذات بينهم ما

---

(١) زاد المسير ٣/ ٣٨٠ والرواية لمسلم . (٢) القرطبي ٨/ ٤٢ . (٣) القرطبي ٨/ ٥٣ .

﴿أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ﴾

في الأرض من الأموال ما قدرت على تأليف قلوبهم واجتماعها على محبة بعضها بعضاً **﴿ولكن الله ألف بينهم﴾** أي ولكنه سبحانه بقدرته البالغة جمع بينهم ووفق ، فإنه المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء **﴿إنه عزيز حكيم﴾** أي غالب على أمره لا يفعل شيئاً إلا عن حكمة **﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾** أي الله وحده كافيك ، وكافي اتباعك ، فلا تحتاجون معه إلى أحد وقال الحسن البصري : المعنى حسبك أي كافيك الله والمؤمنون[1] **﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال﴾** أي حض المؤمنين ورغبهم بكل جهدك على قتال المشركين **﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾** قال أبو السعود : هذا وعد كريم منه تعالى بغلبة كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم[2] والمعنى : إن يوجد منكم يا معشر المؤمنين عشرون صابرون على شدائد الحرب يغلبوا مائتين من عدوهم ، بعون الله وتأييده **﴿وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾** أي وإن يوجد منكم مائة ـ بشرط الصبر عند اللقاء ـ تغلب ألفاً من الكفار بمشيئة الله **﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾** الباء سببية أي سبب ذلك بأن الكفار قوم جهلة لا يفقهون حكمة الله ، ولا يعرفون طريق النصر وسببه ، فهم يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب ، فلذلك يُغلبون قال ابن عباس : كان ثبات الواحد للعشرة فرضاً ، ثم لما شق ذلك عليهم نسخ وأصبح ثبات الواحد للاثنين فرضاً **﴿الآن خفف الله عنكم﴾** أي رفع عنكم ما فيه مشقة عليكم **﴿وعَلِمَ أن فيكم ضعفاً﴾** أي وعلم ضعفكم فرحمكم في أمر القتال **﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾** أي إن يوجد منكم مائة صابرة على الشدائد يتغلبوا على مائتين من الكفرة **﴿وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين﴾** أي وإن يوجد منكم ألف صابرون في ساحة اللقاء ، يتغلبوا على ألفين من الأعداء **﴿بإذن الله﴾** أي بتيسيره وتسهيله **﴿والله مع الصابرين﴾** هذا ترغيب في الثبات وتبشير بالنصر أي الله معهم بالحفظ والرعاية والنصرة ، ومن كان الله معه فهو الغالب **﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾** عتاب للنبي ﷺ وأصحابه على أخذ الفداء[3] والمعنى : لا

---

(١) القول الأول معناه : حسبك الله وحده وحسب أتباعك وقد اختاره الزمخشري ونصره ابن القيم في مقدمة « زاد المعاد » بأدلة مقنعة ، والقول الثاني روي عن مجاهد والحسن البصري واختاره السيوطي والمحلي في تفسير الجلالين ، والأول أرجح .

(٢) تفسير أبي السعود ٢/٢٤٧ . (٣) انظر سبب النزول .

ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ

ينبغي لنبي من الأنبياء أن يأخذ الفداء من الأسرى إلا بعد أن يكثر القتل ويبالغ فيه ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ أي تريدون أيها المؤمنون بأخذ الفداء حطام الدنيا ومتاعها الزائل ؟ ﴿والله يريد الآخرة﴾ أي يريد لكم الباقي الدائم ، وهو ثواب الآخرة ، بإعزاز دينه وقتل أعدائه ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي عزيز في ملكه لا يقهر ولا يُغلب ، حكيم في تدبير مصالح العباد ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ أي لولا حكم في الأزل من الله سابق وهو ألا يعذب المخطىء في اجتهاده[1] ﴿لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ أي لأصابكم في أخذ الفداء من الأسرى عذاب عظيم ، وروي أنها لما نزلت قال عليه السلام (لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر)[2] ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ أي كلوا يا معشر المجاهدين مما أصبتموه من أعدائكم من الغنائم في الحرب حال كونه حلالاً أي محللاً لكم ﴿طيباً﴾ أي من أطيب المكاسب لأنه ثمرة جهادكم ، وفي الصحيح (وجعل رزقي تحت ظل رمحي) ﴿واتقوا الله﴾ أي خافوا الله في مخالفة أمره ونهيه ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي مبالغ في المغفرة لمن تاب ، رحيم بعباده حيث أباح لهم الغنائم ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾ أي قل لهؤلاء الذين وقعوا في الأسر من الأعداء ، والمراد بهم أسرى بدر ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيراً﴾ أي إن يعلم الله في قلوبكم إيماناً وإخلاصاً ، وصدقاً في دعوى الإيمان ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ أي يعطكم أفضل مما أخذ منكم من الفداء ﴿ويغفر لكم﴾ أي يمحو عنكم ما سلف من الذنوب ﴿والله غفور رحيم﴾ أي واسع المغفرة ، عظيم الرحمة لمن تاب وأناب قال البيضاوي : نزلت في العباس رضي الله عنه حين كلفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه وابني أخويه «عقيل» و«نوفل» فقال يا محمد : تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت ، فقال : أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك وقلت لها : إني لا أدري ما يصيبني في جهتي هذه ، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعيالك ! ! فقال العباس : ما يدريك ؟ قال : أخبرني به ربي تعالى ، قال : فأشهد أنك صادق ، وأن لا إله إلا الله وأنك رسوله ، والله لم يطلع عليه أحد ، ولقد دفعته إليها في سواد الليل ! ! قال العباس : فأبدلني الله خيراً من ذلك ، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال مكة ، وأنا أنتظر المغفرة من ربي - يعني الموعود - بقوله تعالى ﴿ويغفر لكم﴾[3] ﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ وإن كان هؤلاء الأسرى يريدون خيانتك يا محمد بما أظهروا من القول ودعوى الإيمان ﴿فقد خانوا اللهَ من قبل﴾ أي فقد خانوا الله تعالى قبل هذه الغزوة غزوة بدر

---

(١) هذا القول اختاره الرازي وضعف بقية الأقوال وهو أحد الأقوال المروية عن ابن عباس . انظر الفخر الرازي ١٥/٢٠٢ .

(٢) انظر تفصيل موضوع الفداء في التفسير الكبير للرازي . (٣) تفسير البيضاوي ١/٢١٧ .

خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا

﴿فأمكن منهم﴾ أي فقواك ونصرك الله عليهم وجعلك تتمكن من رقابهم ، فإن عادوا إلى الخيانة فسيمكنك منهم أيضاً ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عالم بجميع ما يجري ، يفعل ما تقضي به حكمته البالغة ﴿إن الذين آمنوا﴾ أي صدقوا الله ورسوله ﴿وهاجروا﴾ أي تركوا وهجروا الديار والأوطان حباً في الله ورسوله ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ أي جاهدوا الأعداء بالأموال والأنفس لإعزاز دين الله ، وهم المهاجرون ﴿والذين آووا ونصروا﴾ أي آووا المهاجرين في ديارهم ونصروا رسول الله وهم الأنصار ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الفاضلة بعضهم أولياء بعض في النصرة والإرث ، ولهذا آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا﴾ أي آمنوا وأقاموا بمكة فلم يهاجروا إلى المدينة ﴿ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ أي لا إرث بينكم وبينهم ولا ولاية حتى يهاجروا من بلد الكفر ﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر﴾ أي وإن طلبوا منكم النصرة لأجل إعزاز الدين ، فعليكم أن تنصروهم على أعدائهم لأنهم إخوانكم ﴿إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ أي إلا إذا استنصروكم على من بينكم وبينهم عهد ومهادنة فلا تعينوهم عليهم ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي رقيب على أعمالكم فلا تخالفوا أمره. ذكر تعالى المؤمنين وقسمهم إلى ثلاثة أقسام : المهاجرين ، الأنصار ، الذين لم يهاجروا ، فبدأ بالمهاجرين لأنهم أصل الإسلام وقد هجروا الديار والأوطان ابتغاء رضوان الله ، وثنى بالأنصار لأنهم نصروا الله ورسوله وجاهدوا بالنفس والمال ، وجعل بين المهاجرين والأنصار الولاية والنصرة ، ثم ذكر حكم المؤمنين الذين لم يهاجروا وبيّن أنهم حرموا الولاية حتى يهاجروا في سبيل الله ، وبعد ذكر هذه الأقسام الثلاثة ذكر حكم الكفار فقال ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ أي هم في الكفر والضلال ملة واحدة فلا يتولاهم إلا من كان منهم ﴿إلا تفعلوه﴾ أي وإن لم تفعلوا ما أمرتم به من تولي المؤمنين وقطع الكفار ﴿تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ أي تحصل في الأرض فتنة عظيمة ومفسدة كبيرة ، لأنه يترتب على ذلك قوة الكفار وضعف المسلمين ، ثم عاد بالذكر والثناء على المهاجرين والأنصار فقال ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله﴾ وهم المهاجرون أصحاب السبق إلى الإسلام ﴿والذين آووا ونصروا﴾ وهم الأنصار أصحاب الإيواء والإيثار ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

أي هؤلاء هم الكاملون في الإيمان ، المتحققون في مراتب الإحسان ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ أي لهم مغفرة لذنوبهم ، ورزق كريم في جنات النعيم قال المفسرون : ليس في هذه الآيات تكرار ، فالآيات السابقة تضمنت الولاية والنصرة بين المؤمنين ، وهذه تضمنت الثناء والتشريف ، ومآل حال أولئك الأبرار من المغفرة والرزق الكريم في دار النعيم ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم﴾ هذا قسم رابع وهم المؤمنون الذين هاجروا بعد الهجرة الأولى فحكمهم حكم المؤمنين السابقين في الثواب والأجر ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ أي أصحاب القرابات بعضهم أحق بإرث بعض من الأجانب في حكم الله وشرعه قال العلماء : هذه ناسخة للإرث بالحلف والإخاء ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ أي أحاط بكل شيء علماً ، فكل ما شرعه الله حكمة وصواب وصلاح ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وهو ختم للسورة في غاية البراعة .

البَلَاغَة : ١ ـ ﴿وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم﴾ هذا الأسلوب يسمى بـ « الإطناب » وفائدته التذكير بالمنة الكبرى والنعمة العظمى على الرسول والمؤمنين .

٢ ـ ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . .﴾ الآيات قال في البحر : انظر إلى فصاحة هذا الكلام حيث أثبت في الشرطية الأولى قيد الصبر ، وحذف نظيره من الثانية ، وأثبت في الثانية قيد كونهم من الكفرة ، وحذفه من الأولى ، ولما كان الصبر شديد الطلب أثبت في جملتي التخفيف ، ثم ختمت الآيات بقوله ﴿والله مع الصابرين﴾ مبالغة في شدة المطلوبية ، وهذا النوع من البديع يسمى « الاحتباك »[1] . فلله در التنزيل ما أحلى فصاحته وأنضر بلاغته ! !

« تم بحمده تعالى تفسير سورة الأنفال »

* * *

(١) البحر المحيط ٤/١٦

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

مَعَالِي السيّد حَسَن عَبّاس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقْفًا لله تعَالى

يُوزع مَجانًا ولا يُبَاع

طُبعَ على نفقة المحسن الكبير

معالي السيّد حسن عبّاس الشربتلي

وَجعَلهُ وَقفًا لله تعالى

يُوزع مجانًا ولا يُباع